

فرناندو سورينتينو

الطريقة الوحيدة لمكافحة العقارب

وقصص أخرى غير عادية



ترجمة:

عبد الله محمد الطيب

تقديم: د. سعد البازعي

kalemat

الطريقة الوحيدة لمكافحة العقارب

وقصص أخرى غير عادية

الطريقة الوحيدة لمكافحة العقارب

وقصص أخرى غير عادية

فرناندو سورينتينو

ترجمة:
عبدالله محمد الطيب

تقديم:
سعد البازعي

2021

kalemat

إهداء فوق الإهداء ... إلى هدية الدهر
وحسنة هذا الزمان.
محبكم:
٢١/١٢/١٤٤٧هـ

إهداء

Dedicatoria

إلى فرناندو سورينتينو

A Fernando Sorrentino

نوافذ ديستوبية

في هذه المجموعة القصصية رعب، فيها الكثير منه، ولكن فيها أيضًا الكثير من الطرافة التي تصل حد الكوميديا. واقتران الرعب بالكوميديا ليس غريبًا على قراء الأدب، خاصة السرد منه. اسمه التقليدي «الكوميديا السوداء»، حيث تلتقي البهجة بالكآبة والابتسامة بالخوف، لكن الجانب المرعب يقترن أيضًا بما يعرف حاليًا بالديستوبيا، العالم المقابل أو -بالأحرى- النقيض لليوتوبيا؛ عالم الدمار أو الخوف أو الانحدار مقابل العالم المثالي المتعالي. وكلا العالمين غير واقعي تمامًا، لكن في كليهما قدرًا لا بأس به من الواقع أيضًا.

ما يميز هذه المجموعة القصصية الأرجنتينية التي ترجمها باقتدار الروائي والمترجم عبد الله محمد الطيب، أن العالم الديستوبي الذي يطل من القصص عالم سهل الهضم في الغالب، تتأتى سهولته من اللمسات المضحكة التي تجعلنا نتقبل خوف الاحتمالات ونتخفف من قلق المصير بطرافة المواقف. إنها القدرة الفنية العالية التي تقف -دون شك- وراء النجاح الذي حققه الكاتب بترجمة أعماله إلى كل ذلك العدد الكبير من اللغات.

حين نتأمل وضع ذلك الرجل الذي كسر مفتاح شقته من الداخل ولم يستطع الخروج سنجد أننا أمام سرد يأخذنا إلى مجهول لم نتوقعه، مفاجأة تتركنا فاغري الأفواه أمام ما يمكن أن يؤدي إليه

خطأ صغير قد يحدث لأي منا. صحيح أن احتمالات وقوع ذلك في حياتنا اليومية، وبما تحمله القصة من تفاصيل أترك للقارئ اكتشافها، تكاد تكون معدومة، لكن الحكاية تتصاعد على نحو واقعي ومقنع إلى حد بعيد أيضًا. ليس ثمة خوارق أو أحداث سوريالية. هي سلسلة لا تتوقف من التطورات التي تأخذ بتلابيب القارئ بسرعة الأحداث في قصة قصيرة. لكن غياب السوريالية عن هذه القصة لا يعني غيابها عن بقية القصص؛ فقصة الرجل الذي يضرب الراوي على رأسه بالمظلة ليست مما يمكن أن يحدث في حياتنا اليومية على هذه الصورة، أو يحتمله الواقع، لكن القصة تفجر احتمالاً لواقع نفسي ناشئ عن انقسام في الشخصية، انقسامها إلى شخصيتين متعارضتين (جيكل وهايد)، أو على الأقل ذلك ما يبدو أنه تفسير لفعل يتجاوز الواقع.

قراءة أدب أرجنتيني ستذكر القراء، أو بعضهم على الأقل، بعملاق القصة الأرجنتينية بل العالمية: خورخي بورخيس. ولأنني أعرف بورخيس جيدًا، أو أظن ذلك، كان استحضاره حتمياً عند مجرد ذكر اسم كاتب من الارجنتين. لكن الصلة بين قصص سورنتينو ومواطنه العظيم تنعقد بسهولة على مستوى الواقع الذي ينفتح بسهولة وفجأة على المخيف والمقلق. فتأزيم الواقع وأشكلة المألوف هو ما تتسم به قصص بورخيس إجمالاً. لكن الفروق تبقى قائمة بين الكاتبين دون شك، ولعل أهم تلك الفروق أن المخيف والمقلق عند بورخيس يُستمد من ملابسات المعرفة وتاريخ الثقافة كما من الاصطدام بالغامض اللانهائي بدلًا من انبعاثه من تفاصيل الحياة اليومية وتعاملات الحياة الاجتماعية.

تبقى متعة السرد الخيمة الكبرى التي تظلل الإبداع القصصي في نماذجه العليا، وسيجد القارئ الكثير من تلك المتعة بين دفتي هذه المجموعة التي تشكل إضافة للمكتبة العربية المترجمة. وإذا كنا نحتفي بما في الأدب من متعة وإضاءات تكشف الحياة فإن كون العمل مترجمًا من شأنه أن يضاعف تلك المتعة. هنا نتذكر أهمية هذه الممارسة المعرفية والإبداعية الأساسية في حياة الثقافات، أي الترجمة. ففي الترجمة نوافذ لمزيد من الأوكسجين الذي تحتاج إليه كل الثقافات واللغات لا لتتنفس فحسب وإنما ليكون لتنفسها معنى وفي حياتها نمو.

سعد البازعي

الرياض

روح التنافس

روح المنافسة كانت شديدة الاشتعال بين قاطني المبنى السكني في شارع باراچواي، حيث أعيش.

صحيح أنهم لفترة طويلة اقتصروا على التنافس في اقتناء الكلاب، القطط، الكناري، أو الببغاوات. وغريبو الاطوار منهم لم يغالوا كثيراً، مفضلين السناجب الصغيرة أو السلاحف. أنا شخصياً، كان لديّ كلب بوليسي رائع، اسمه خوسيسيتو، أصغر بقليلٍ من شقتنا. وإلى جانب خوسيسيتو وزوجتي، عاشت معي أيضاً - كان هذا أمراً غير معروفٍ البتة - عنكبوت رائعة من النوع الذئبي.

في صباح أحد الأيام، حوالي الساعة التاسعة، بينما كنت أطعم عنكبوتي الأليفة، جاء جارنا ساكن شقة 7 (ج) والذي لم يسبق لي رؤيته من قبل، لاستعارة صحيفتي لبعض الوقت - لا أعلم لأي سبب محير. لكنه وقف في مكانه وقتاً طويلا، والجريدة بين يديه، غير قادر على المغادرة. مسحوراً، كان يحدق في العنكبوت چيرترووديس وفي عينيه شيء ما جعلني أرتعد؛ كانت روح التنافس.

في اليوم التالي، عرج علي ليريني العقرب الذي كان قد اشتراه للتو. في الردهة، سمعَتْ خادمة ساكني 7 (د) حديثنا حول حياة وعادات وتغذية العناكب والعقارب والقراد. بعد ظهر ذلك اليوم، حصل مخدوموها على سلطعون.

بعد ذلك، ولمدة أسبوع، لم يطرأ أي شيء جديد، حتى حلّت إحدى الأمسيات عندما كنت في المصعد مع جارة من الطابق الثالث، شابة شقراء واهنة، بنظرات فارغة تظلل عينيها. كانت تحمل حقيبة صفراء كبيرة، سحّابها معطوب جزئيا؛ بين الحين والآخر، يطلّ رأس صغير لسحليّة صفراء ذهبية من خلال السحاب.

أثناء عودتي من محل البقالة في الظهيرة التالية، كادت الأكياس تفلت من يديّ عندما تقابلت وجهاً لوجه مع دبّ النمل الذي كان ينزل من شاحنة في طريقه إلى مسؤول خدمات المبنى. أحد المتفرجين الذين تجمهروا هناك تمتم بصوت مسموع أن دبّ النمل، في واقع الأمر، ليس دباً حقيقيا. بدت زوجة المحامي ذاهلة من جراء هذا، وركضت وهي ترتجف، لائذة إلى شقتها. لم أرها تظهر مرة أخرى إلا بعد أيام قليلة، حينما جاءت بوجه مشرق، لتوقّع باستخفاف على إيصال استلام من رجال توصيل البضائع الذين أحضروا لها للتو دباً بنياً أمريكيا.

أصبح وضعي الآن غير محتمل؛ حرمني الجيران من تحاياهم اليومية، ورفض الجزّار وضع ثقته بي، وبتّ يومياً أتلقى رسائل مهينة من مجهولين. أخيراً، عندما هددتني زوجتي بالانفصال، أدركت أنه لم يعد بإمكاني تحّمل بقاء عنكبوتي المتواضع ولا حتى ليوم واحد. دخلت في جولة من الأنشطة لم يسبق لها نظير؛ اقترضت المال من العديد من الأصدقاء، وأصبحت مقتصداً بشكل يفوق الوصف، حتى أنني أقلعت عن التدخين. بهذه الطريقة تمكنت من شراء فهدٍ جميل، أكثر روعة مما يمكن

تخيله. لكن سرعان ما حاول جاري، القاطن في شقة ٧ (ج) والذي دأب على تتبع خطاي، التغلب عليّ باقتناء يغور. على الرغم من أن ذلك بدا غير منطقي، فقد نجح في ذلك.

لشد ما يؤلمني التعامل مع الأشخاص الذين يفتقرون إلى الحس الجمالي، يهتمون بالكم، من دون تقدير للنوع أو الجودة. لم ينحن حتى جارٌ واحدٌ أمام جمال الفهد الراقي؛ فقد أعمى أبصارهم وبصيرتهم حجم اليغور الكبير. على الفور، انطلق جميع الجيران نحو تجديد حيواناتهم، متأثرين بالتبجّح الفجّ لمالك اليغور. كان لزاماً عليّ أن أدرك أن فهدي المتواضع لم يعد يمنحني مكانتي الاجتماعية السابقة.

في مواجهة المحادثات الهاتفية الخفية التي كانت تجريها زوجتي مع رجل مجهول، علمت أن المعضلة عويصة. من دون ذرة ندم، بعت الأثاث والثلاجة والغسالة وجهاز تلميع الأرضيات؛ حتى التلفاز بعته. باختصار، لقد بعت كل ما يمكن بيعه، واشتريت أصلة عاصرة ضخمة من نوع أناكوندا.

حياة الرجل الفقير صعبة؛ كنت بطل المبنى لثلاثة أيام فحسب.

أفعى الأناكوندا كسرت كل الحواجز، دمّرت كل معاني الاعتدال، وأسقطت جميع الأعراف والاتفاقيات. تزايد على إثرها الآن عدد الأسود والنمور والغوريلات والتماسيح في جميع الشقق، لدرجة أن البعض لديه من الفهود السود التي لا يوجد مثلها ولا حتى في حديقة الحيوانات المحلية. دوّى المبنى بأكمله بأصوات هدير وعواء وصرير. صرنا نقضي الليالي مستيقظين، حيث كان النوم من المستحيلات. الروائح المختلطة للقطط والقرود والزواحف

والحيوانات المجترة جعلت الجو غير قابل للتنفس. شاحنات ضخمة تجلب باستمرارٍ أطناناً من اللحوم والأسماك والخضروات. أصبحت الحياة في المبنى الواقع في شارع باراچواي خطيرة بعض الشيء.

بعد مضي فترة طويلة، مررت بتجربة مثيرة عندما تشاركت المصعد مرة أخرى مع الجارة الشابة الواهنة من الطابق الثالث؛ كانت الآن تصطحب نمرها البنغالي في نزهة حول المبنى كي يبول. تذكرت سحليتها التي أطلت برأسها الصغير من خلال فتحة السحّاب. شعرت بالتأثر؛ أين منّا تلك الأيام الصعبة الأولى، كم بعدت عنا أيام العقارب وسرطانات البحر!

في النهاية، أتى علينا وقت لم نستطع فيه الوثوق بأحد. تحت النظرات المحمومة للعديد من أصحاب الشقق، قام البواب بغسل خرتيته ذي القرنين بالماء والصابون على الرصيف، وبعد الانتهاء اقتاده إلى شقته وكأن شيئاً لم يحدث. كان ذلك أكثر مما اعتاد صاحب شقة 5 (أ) على تحمّله؛ فلم تكد تمر بضع ساعات حتى كان الرجل يصعد السلم بانتصار، ممسكاً بزمام فرس النهر.

الآن، المبنى شبه مدمر ومغمور بالمياه. أنا أكتب هذا التقرير من على السطح، في ظروف غير مواتية. من حين لآخر، يفزعني النهيم الحزين للفيل الذي يعيش مع أصحاب شقة 7 (أ). أنا أكتب بينما أراقب الوقت على ساعتي، حيث يتعين عليّ أن أحتمي وسط أنقاض السلم كل ثماني دقائق حتى لا يبلل هذه الصفحات تيار البخار المتدفق من الحوت الأزرق في شقة 7 (ج). إنني أكتب حيث أنا بشيء من عدم الارتياح، واقعاً تحت نظرات الزرافة في شقة 7 (د)، تبرز رأسها من أعلى الحائط، ولا تتوقف أبداً ولو لثانية واحدة عن التوسل إليّ من أجل بعض المقرمشات.

الطريقة الوحيدة لمكافحة العقارب

يشعر الناس بالدهشة، والخوف، والسخط أيضاً من انتشار العقارب الهائل والمحدق بمدينة بوينس آيرس، التي كانت حتى عهدٍ قريبٍ جداً خالية تماماً من هذا الجنس من العنكبوتيات بالتحديد.

يلجأ الأشخاص محدودو الخيال إلى طريقة تقليدية للغاية للدفاع عن أنفسهم ضدّ العقارب، وهي استخدام السموم. أمّا الأشخاص الأوسع خيالاً فيملأون منازلهم بالثعابين والضفادع والسحالي، آملين أن تقضي على العقارب وتنتهي المشكلة! لكن كلا الصنفين مع الأسف باء بالفشل؛ فالعقارب ترفض بشدة ابتلاع السموم، والزواحف والضفدعيات ترفض تناول العقارب! نظراً لقلّة كفاءتهما وتسرّعهما، نجح كلا الفريقين في تحقيق شيءٍ واحدٍ فقط: مفاقمة الكراهية، وربما تأجيجها بشكل كبير، التي تجاهر بها العقارب تجاه البشرية قاطبة.

فيما يتعلّق بي، كانت لديّ طريقة أخرى، حاولت أن أعمّمها لكن من دون جدوى، وأسيء فهمي كما هو الحال مع جميع الروّاد. بلا فخر، أظنّ أنّ طريقتي ليست الأفضل فقط، ولكنّها أيضاً الطريقة الوحيدة الممكنة للدفاع ضدّ العقارب!

المبدأ الأساس لطريقتي هو تجنّب المعركة المباشرة، والقيام بمناوشات ارتجالية قصيرة، وعدم إظهار العداوة للعقارب.

(بالطبع، أعلم أنّ على المرء توخّي الحذر الشديد، وأعلم كذلك أنّ لدغة العقرب قاتلة. صحيح أنّني إذا ارتديت بذلة غطس فسأكون في مأمنٍ تماماً من العقارب، لكن صحيح أيضاً أنّه في هذه الحالة ستعرف العقارب على وجه اليقين أنني أخشاها! أنا فعلاً خائفٌ جداً من العقارب، لكن يجدر بالمرء ألا يفقد هدوء أعصابه).

الإجراء الأوّل، فعّال وخالٍ من المبالغة والمشاهد الكارثية، يتكوّن من خطوتين بسيطتين. الأولى هي لفّ أسفل البنطال بشرائط مطاطية مشدودة كي لا تتمكّن العقارب من تسلّق ساقيّ. الثاني هو التظاهر بأنّي أشعر بالبرد الشديد وأرتدي قفازات جلدية طوال الوقت حتى لا تتعرض يداي للّدغ! (العديد ممّن لديهم روح نقديّة هدّامة أشاروا فقط إلى عيوب هذه الطريقة في فصل الصيف، من دون مراعاة لمزاياها الكبيرة التي لا يمكن إنكارها). أمّا الرأس فيجب كشفه، حيث أنّها أفضل طريقة لتقديم صورة شجاعة وتفاؤلية عن أنفسنا للعقارب؛ إلى جانب ذلك، ليس من عادة العقارب إلقاء نفسها من السقف على رؤوس البشر، رغم أنّها تفعل ذلك أحياناً! (على الأقل، هذا ما حدث لجارتي الراحلة، وهي أمٌّ لأربعة أطفال صغار رائعين، أصبحوا الآن أيتاما. وممّا يزيد الأمور سوءاً، أنّ هذه الأحداث العارضة تولّد نظريات مغلوطة من شأنها فقط أن تجعل مكافحة العقارب أمراً مرهقاً وأكثر صعوبة. في الواقع، يؤكّد الأرمل، زوج الجارة الراحلة، من دون أساس علميّ كافٍ، أنّ العقارب الستّة جذبها اللون الأزرق العميق لعيون زوجته؛ وكدليل ضعيف على هذا

الإدّعاء المتهوّر، يستشهد بحقيقة، محض صدفة، أنّ اللسعات الستّة توزّعت بالتساوي، ثلاث في كلّ عين! وأنا أزعم أنّ هذه مجرد خرافة، صاغها العقل الخائف لهذا الشخص الجبان).

كما هو الحال في الدفاع، أيضاً في الهجوم من الضروري التظاهر بعدم إدراك وجود العقارب. وكأنّني غير راغبٍ في ذلك، كما ترون، بكلّ برودٍ أتمكّن من قتل ما بين ثمانين إلى مئة عقرب يومياً! انتهج الطريقة التالية، والتي آمل أن يُقتدى بها، من أجل بقاء الجنس البشري، وأن تُحسّن وتُطوّر قدر الإمكان.

أجلس على طاولة المطبخ وأتظاهر بالانهماك في قراءة الجريدة. بين الحين والآخر، أنظر إلى ساعتي وأغمغم بصوت مرتفع بما يكفي لأن تسمعه العقارب: «اللعنة! لماذا لا يتّصل ذلك الشيطان، پيريز؟» تثير عدم موثوقية پيريز غضبي، فأغتنم الفرصة وأضرب بقدمي على الأرض بانفعال عدة مرات؛ هكذا أقتل ما لا يقلّ عن عشر من العقارب التي تغطّي الأرض بعدد لا حصر له. على فترات غير منتظمة، أكرّر التعبير عن نفاد صبري، ومن ثمّ أقتل عدداً كبيراً منها. هذا لا يعني أنّني لا أهتم بالعقارب التي بكثرتها التي تفوق الحصر تغطّي السقف والجدران بالكامل (تبدو كخمسة بحار من القار، مضطربة، نابضة، ومتغيّرة)؛ فمن وقت لآخر، أتظاهر بهستيريا وألقي بعض الأشياء الثقيلة على الحائط، مواصلاً شتم پيريز لأنّه استغرق وقتاً طويلاً للاتّصال بي. للأسف، لقد كسرت بالفعل عدّة أطقم من الأكواب والأطباق، وصرت أعيش بين الأواني والمقالي المنبعجة؛ لكن ثمن الدفاع عن النفس ضدّ العقارب باهظ. أخيراً، لا بد

أن يتّصل بي شخص ما؛ «إنّه پيريز!»، أصرخ حينها مهرولاً إلى الهاتف. بطبيعة الحال، أكون في عجلة من أمري وقلقاً للغاية، لدرجة أنّي أخفق في ملاحظة الآلاف المؤلفة من العقارب، جهاراً تكسو الأرض، وهي تطقطق تحت قدميّ، محدثة ما يشبه الصوت اللزج القاسي لبيضة تتكسّر! أحياناً، فقط أحياناً، - ولا ينبغي إساءة استخدام هذه الحيلة - أتعثّر وأسقط بكامل جسدي، ممّا يزيد في مساحة منطقة الارتطام بشكل كبير، وبالتالي يزداد عدد العقارب المقتولة! عندما أقف على قدميّ مرّة أخرى، تكون ملابسي مزيّنة بأكملها بجثثٍ ملتصقة للكثير من العقارب؛ يشكّل نزعها واحدة تلو الأخرى مهمّة حساسة، لكنّها تجعلني أتلذّذ بطعم انتصاري!

الآن، أودّ السماح لنفسي باستطراد قصير لأروي طرفة توضيحية في حد ذاتها، حدثت لي منذ بضعة أيام، لعبت فيها، دون قصد، دوراً لعلّي أجرؤ على وصفه بأنّه بطوليّ.

كان وقت تناول طعام الغداء؛ وكالعادة وجدت المائدة مغطّاة بالعقارب، الأطباق مغطّاة بالعقارب، والموقد كذلك مغطى بالعقارب. بصبر وإذعان ونظرة فارغة، دفعت العقارب وجعلتها تسقط على الأرض. نظراً لأنّ مكافحة العقارب تستغرق معظم وقتي، فقد قرّرت أن أعدّ لنفسي وجبة سريعة: أربع بيضات مقلية. شرعت بتناول وجبتي، ومن وقت لآخر كنت أدفع بعيداً بعض العقارب الأكثر جرأة التي تصعد على الطاولة أو تمشي على ركبتيّ، حين فجأة سقطت، أو ربّما قفزت، إحدى العقارب القوية أو النشيطة بشكل خاص من السقف على طبقي!

سقطت الفضيات من يدي وتجمّدت في مكاني من شدة الرعب. كيف يمكن تفسير هذا الموقف؟ هل كان من قبيل الصدفة؟ اعتداء شخصي؟ اختبار حاسم؟ بقيت حائراً للحظات، ماذا أرادت العقارب منّي؟ لأنّني متمرّس على قتالها فقد فهمت مرادها على الفور. لقد أرادت إجباري على تغيير أسلوبي الدفاعي، ليتحوّل صراحة إلى الهجوم. غير أنّي كنت واثقاً تماماً من فاعلية خطّتي؛ لن تتمكن أبداً من خداعي!

بغضب مكبوت، شاهدت كيف تناثرت أرجل العقرب السميكة والمشعرة في البيض، وكيف تشرّب جسدها الصفار، وكيف لوّح ذيلها السام في الهواء، كناجٍ من سفينة غارقة يطلب المساعدة. من وجهة نظر موضوعية، كان مشهد معاناة العقرب جميلاً! بيد أنّه جعلني أشعر بالاشمئزاز قليلاً. كدت أفشل وأستسلم؛ فكّرت في التخلّص من محتويات الطبق. لكن كانت لديّ قوة إرادة، وعرفت كيف أكبح جماح نفسي في الوقت المناسب؛ ولو لم أفعل، لاكتسبت عداوة واستنكار الآلاف المؤلفة من العقارب التي كانت تراقبني، بارتياب متجدّد، من السقف والجدران والأرض والموقد والمصابيح ... ولأصبح لديها ذريعة لتعتبر أنفسها تتعرض للهجوم، ومن ثمّ، من يدري ماذا كان سيحدث!

استجمعت شجاعتي وتظاهرت بأنّني لم أنتبه إلى العقرب التي كانت لا تزال تقاوم على طبقي؛ من دون تركيز، أكلتها مع البيض، حتى أنّي مسحت الطبق بقطعة خبز حتى لا أترك أيّ أثرٍ للبيض والعقرب. لم يكن الأمر مقزّزاً كما كنت أخشى؛ لعلّ طعمها كان حمضياً قليلاً، لكن أظنّ أنّي أحسست بذلك لأنّ فمي لم يعتد

بعد على أكل العقارب! مع آخر قضمة، رسمت ابتسامة الرضى على وجهي. بعدها، خطر لي أن قشرة العقرب الكيتينية، صلبة أكثر مما كنت أتمنّى، قد تكون غير قابلة للهضم؛ بكلّ لباقة وهدوء، حتى لا أسيء إلى بقية العقارب، شربت كوباً من مضادّ الحموضة!

هناك صيغاً أخرى مختلفة لطريقتي هذه، ولكن من الّلازم تذكّر أنّ الأمر الأساس هو التصرّف كما لو أنّ المرء غير مدركٍ لوجود العقارب، أو بالأحرى لكينونتها. ومع ذلك، تولّدت لديّ الآن بعض الشكوك؛ يبدو لي أنّ العقارب بدأت تدرك أنّ هجماتي ليست لا إرادية في الحقيقة. فبالأمس، عندما أسقطت قدراً من الماء المغلي على الأرض، لاحظت أنّه كان هناك نحو ثلاثمائة أو أربعمائة من العقارب، على باب الثلاجة، تراقبني بغيظ، وارتياب، ولوم!

ربما مصير طريقتي هو الفشل؛ لكن حالياً، لا يمكنني التفكير في طريقة أخرى أفضل للدفاع عن نفسي ضدّ العقارب!

الدرس

بعد تخرجي من المرحلة الثانوية، حصلت على وظيفة كاتب في شركة تأمين في بوينس آيرس. كانت الوظيفة كريهة للغاية؛ ألفيت نفسي في بيئة عمل تعجّ بالأشخاص الفظيعين؛ لكن نظراً لأنني كنت في الثامنة عشرة من عمري لم أكترث كثيراً.

مبنى الشركة يتألف من عشرة طوابق، يخدمها أربعة مصاعد؛ ثلاثة منها مخصّصة للإستخدام العام من قبل الموظفين من جميع الفئات والمراتب. أمّا المصعد الرابع، المفروش بالسجاد الأحمر وبه مرايا ثلاث ومزخرف بديكور خاص، فقد كان مخصصاً لإستخدام رئيس الشركة وأعضاء مجلس الإدارة والمدير العام، حصريا. هذا يعني أنهم وحدهم يستطيعون استخدام المصعد الأحمر؛ لكن، في ذات الوقت، لا يمنعهم ذلك من استخدام المصاعد الثلاث الأخرى.

لم تقع عيناي قط على رئيس الشركة أو أعضاء مجلس الإدارة؛ لكن بين الحين والآخر، كنت ألاحظ المدير العام عن بعد دائماً؛ ومع ذلك، لم أتبادل معه حتى كلمة واحدة. كان رجلاً في الخمسينات من العمر، ذا مظهر نبيل ومهيب؛ بدا لي هجيناً بين وجيهٍ أرجنتيني وقاضٍ نزيه في محكمة عليا. مع أنني، حقيقة، أكره جميع رؤسائي المباشرين، إلّا أن شعره الفضي، وشاربه المستقيم، ورزانة ملبسه، ولطف أخلاقه جعلوني أشعر بقدر

معين من الودّ تجاه *دون فرناندو*؛ هكذا كان الجميع ينادونه: *دون*، ويتبعونها بإسمه الأول وليس إسم العائلة، في خطاب وسطي بين ما قد يبدو أنه ألفة جليّة وبين احترام وتبجيل مستحق لسيدٍ إقطاعي.

احتلّت المكاتب التي يشغلها *دون فرناندو* وحاشيته الطابق الخامس بأكمله. كان قسمنا في الطابق الثالث، لكن بصفتي الموظف الأقل أهمية، كانوا يرسلونني من طابق إلى آخر لأداء بعض المهام. في الطابق العاشر لم يكن هناك سوى رجال مسنّين ونساء عبوسات قبيحات، يؤدّون نوعاً من خدمات الأرشيف، حيث يتوجب عليّ، يومياً، قبل خمس دقائق من مغادرتي المبنى أن أسلّم مجموعة من الأوراق تحتوي على ملخصات لجميع المهام المنفذة في ذلك اليوم.

ذات مساء، بعد أن سلّمت تلك الأوراق، كنت بانتظار المصعد في الطابق العاشر، استعداداً للعودة إلى المنزل؛ لذا، كنت ساعتها مرتدياً سترتي فوق القميص، وقد رجّلت شعري، وقمت بتعديل ربطة عنقي أمام المرآة، ممسكاً بحقيبتي الجلدية.

فجأة، وقف *دون فرناندو* ذاته بجانبي؛ كان في انتظار المصعد أيضا.

قدّمت له التحية بكل احترام: «مساء الخير *دون فرناندو*.»

ردّ *دون فرناندو* تحيتي البسيطة بأحسن منها، ماداً يده لمصافحتي: «أنا سعيدٌ بلقائك أيها الشاب؛ أرى أنك أنهيت يوم عملٍ مثمر، والآن تغادر المبنى بحثاً عن راحتك التي نلتها عن جدارة».

ذلك التصرف وتلك الكلمات - أعتقد أنني لمست بها لمحة دقيقة من السخرية - أصابتني بالتوتر؛ شعرت بحمرة الخجل تجتاح وجهي.

في تلك اللحظة، وصل أحد المصاعد المخصصة للموظفين، وفُتح الباب تلقائياً، حاسراً عن كبينة خالية. لإبقاء الباب مفتوحاً، واصلت الضغط على زر استدعاء المصعد، بينما توجّهت إلى *دون فرناندو* قائلاً: «من بعدك يا سيدي.

ردّ *دون فرناندو* بابتسامة: «لا، لا أيها الشاب، مستحيل؛ أنت أولاً.»

«لا سيدي، من فضلك؛ لا يمكن؛ من بعدك، أرجوك».

«هيّا أيها الشاب»، قال بصوت يشوبه نفاد صبر؛ «إصعد، من فضلك.»

خرجت منه كلمة «من فضلك» بطريقة قطعية، لدرجة أنني اضطررت إلى الإمتثال لها كأمر. بإنحناءة تأدب صغيرة صعدت المصعد، وصعد *دون فرناندو* من بعدي.

أُغلق الباب.

«هل أنت ذاهب إلى الطابق الخامس، *دون فرناندو*؟»

«بل إلى الطابق الأرضي؛ أنا ذاهب إلى المنزل مثلك تماماً. أعتقد أن لي الحق أيضاً في الحصول على قسط من الراحة، أليس كذلك؟»

لم أعرف بم أجيب؛ وجود عملاق الصناعة هذا بقربي جعلني أشعر بالتوتر وعدم الإرتياح. هيّأت نفسي لتحمّل صمت قد يدوم

تسعة طوابق حتى وصولنا إلى الطابق الأرضي. لم تكن لدي الجرأة للنظر إلى *دون فرناندو*؛ بدلاً من ذلك، ظللت أحدّق في حذائي.

«في أي قسم تعمل أيها الشاب؟»

«في قسم ضبط الإنتاج يا سيدي»، لاحظت عندها أنّه كان أقصر مني قليلاً.

«آها»، قالها وهو يفرك ذقنه بسبابته وإبهامه؛ «رئيسك المباشر هو السيد *بيوتي*، إن لم أكن مخطئاً».

«بالفعل يا سيدي؛ هو السيد *بيوتي*.»

كنت أكره السيد *بيوتي*، يتراءى لي أحمق ومتغطرساً؛ لكنني لم أشارك *دون فرناندو* هذه المعلومة.

«ألم يخبرك السيد *بيوتي* أبداً أنه يجب عليك احترام التسلسل الهرمي القيادي في الشركة؟»

«آ... ماذا يا سيدي؟»

«ما إسمك؟

«*روبرتو كريسكوفيتش*.»

«أوه، اسم پولندي.»

«كلا يا سيدي، ليس پولنديا، إنه اسم كرواتي.»

وصلنا أخيراً إلى الطابق الأرضي؛ تنحّى *دون فرناندو* جانباً، وكان أقرب منّي إلى الباب، ليسمح لي بالخروج أولاً.

«من فضلك»، قال بلهجة آمرة.

«لا يا سيدي، أرجوك»، أجبت باضطراب؛ «من بعدك يا سيدي».

حدجني بنظرة حادة، وقال: «أيها الشاب.. أناشدك، أنت أوّلا، من فضلك.»

خائفاً، أطعته.

قال وهو يخطو إلى الشارع أمامي: «لم يفت الأوان على التعلّم أيها الشاب؛ أنا أدعوك لشرب فنجان قهوة على حسابي.»

وهكذا، ذهبنا مشياً إلى كافتيريا على زاوية الشارع، *دون فرناندو* في المقدمة وأنا خلفه. في جلوسنا هناك، وجدت نفسي وجهاً لوجه مع المدير العام، لا شيء يفصل بيننا سوى الطاولة.

«منذ متى وأنت تعمل في الشركة؟»

«لقد بدأت في ديسمبر الماضي يا سيدي.»

«بعبارة أخرى، لم يمض عامٌ بعد على وجودك معنا في الشركة».

«سأكون قد قضيت تسعة أشهر الأسبوع المقبل، *دون فرناندو*.»

«حسناً، أنا عملتُ مع هذه الشركة لمدة سبعة وعشرين عاماً»، مرة أخرى رماني بواحدة من تلك النظرات الصارمة.

شعرت أنه يتوقع بعض ردود الفعل مني، فهززت رأسي محاولاً إظهار بعضاً من الإعجاب المكبوت.

أخرج آلة حاسبة صغيرة من جيبه.

«سبعة وعشرون عاماً، مضروبة في اثني عشر شهراً، يكون مجموعها ثلاثمائة وأربعة وعشرين شهرا. ثلاثمائة وأربعة وعشرون شهراً مقسومة على تسعة أشهر تعطينا ستة وثلاثين، ما يعني أنني قضيت في الشركة مدة أطول من مدتك بست وثلاثين مرة! وما هو أكثر من ذلك، أنت مجّرد موظفٌ عادي

بينما أنا المدير العام. وأخيراً، عمرك تسعة عشر أو عشرون عاماً فقط، بينما أنا أبلغ من العمر اثنين وخمسين عاما؛ أليس الأمر كذلك؟

«نعم، نعم بالطبع».

«بجانب ذلك، هل تسعى للحصول على شهادة جامعية؟»

«نعم، *دون فرناندو*؛ أنا أدرس في كلية الآداب، تخصص اللغة اليونانية واللاتينية».

تغيّرت تعبيرات وجهه، كما لو أنه تعرض للإهانة الشخصية من كلامي؛ قال:

«على أي حال، لنر ما إذا كنت ستنهي السباق بنجاح حقاً. من جهة ثانية، أنا حاصل على درجة الدكتوراه في العلوم الإقتصادية، وقد تخرّجت بتفوق».

خفضت رأسي لإظهار التواضع، وبسطت يدي.

تابع حديثه: «وبما أن الأمور على هذا النحو، ألا تعتقد أنني أستحق اعتباراً خاصا؟»

«نعم سيدي، بالتأكيد».

«حسناً، كيف تجرأت على الدخول إلى المصعد قبلي ...؟ ولم تكتف بتلك الجرأة، بل توّجتها بالخروج من المصعد في الطابق الأرضي قبلي.»

«حسناً، سيدي، لم أرغب في أن أكون وقحاً أو عنيدا؛ فقط لأنك كنت مصراً تماما ....»

«سواء أكنت مصرّاً أم لا، فهذا شأني؛ كان يجب أن تدرك أنّه لا ينبغي لك تحت أي ظرف من الظروف أن تدخل المصعد قبلي

أو تخرج منه قبلي؛ غير أن الأسوأ من ذلك هو أن تناقض كلامي. لماذا أخبرتني أن اسم عائلتك هو كرواتي عندما قلت لك أنه بولندي؟»

«لكنه حقاً لقب كرواتي؛ لقد وُلِد أبواي في سپليت، يوغوسلافيا».

«لا يهمني مكان ولادة أبويك أو المكان الذي لم يولدا فيه! إذا قلت إن اسمك بولندي فلا يمكنك ولا ينبغي لك أن تناقضني.»

«أعتذر يا سيدي، لن أفعل ذلك مرة أخرى».

«حسن جدا؛ إذاً فقد ولد أبواك في سپليت، يوغوسلافيا؟»

«لا يا سيدي؛ لم يولدا هناك.»

«وأين ولدا إذن؟»

«في كراكوف، پولندا.»

«يا للعجب!»، فرد دون *فرناندو* ذراعيه، مبدياً دهشته؛ «كيف يكون اسم عائلتك كرواتي بينما والداك پولنديان؟»

«الحقيقة هي أنّه بسبب نزاع عائلي وقانوني، هاجر أجدادي الأربعة من يوغوسلافيا إلى پولندا؛ وولد أبواي في پولندا.»

أظلم وجهه بحزن شديد.

«أنا رجل كبير في السن، ولا أعتقد أنني أستحق أن تستغفلني. قل لي أيها الشاب، كيف أستطعت أن تبتكر مثل هذه الكذبة السافرة؟ كيف يمكنك الإعتقاد بأنني سأصدّق هذه الحكاية الخيالية المخادعة؟ ألم تقل من قبل أن والديك وُلدا في سپليت؟»

«نعم سيدي، لكن بما أنّك أخبرتني أنه لا ينبغي أن أعارضك، فقد اعترفت بأن والديّ وُلدا في كراكوف.»

«إذن، مهما كان الأمر، فقد كذبت علي!»

«نعم سيدي، هذا صحيح؛ لقد كذبت عليك.»

«الكذب على رئيسك ينمّ عن عدم احترام هائل؛ وعلاوة على ذلك، يقوّض الإدارة السلسة للشركة، مثل أي معلومات خاطئة.»

«هذا صحيح يا سيدي؛ أتّفق مع كل ما تقوله.»

«حسنٌ جداً، أنا سعيد بهذا، وأميل بعض الشيء إلى تقدير فعلتك، بعد أن رأيت الآن أنك سهل الانقياد وعقلاني. لكنني أريد أن أخضعك لإختبار أخير؛ لقد تناولنا فنجانين من القهوة؛ من منّا سيدفع الفاتورة؟»

«سيكون من دواعي سروري أن أفعل ذلك.»

«لقد كذبت عليّ مرة أخرى؛ أنت تحصل على راتبٍ منخفضٍ للغاية، ولا يمكن أن تكون سعيداً بدفع ثمن قهوة المدير العام الذي يكسب في شهرٍ واحدٍ أكثر مما ستحصل عليه في عامين! لذا، من فضلك لا تكذب عليّ؛ أخبرني بالحقيقة: هل صحيح أنك تحب دفع ثمن قهوتي؟»

«لا، *دون فرناندو*، الحقيقة هي أنني لا أحب ذلك.»

«ولكن، على الرغم من حقيقة أنّك لا تحب ذلك، هل أنت مستعد للقيام بذلك؟»

«نعم، *دون فرناندو*، أنا مستعدٌ للقيام بذلك.»

«إذاً، ادفع الحساب في الحال، ولا تجعلني أفقد المزيد من الوقت، بحق السماء!»

ناديت على النادل ودفعت ثمن القهوة. خرجنا إلى الشارع، *دون فرناندو* يتقدمني. ألفينا أنفسنا لدى مدخل مترو الأنفاق.

«حسناً أيها الشاب، سأضطر الآن إلى المغادرة؛ أتمنى صادقاً أن تكون قد استوعبت الدرس، وأن تستفيد منه في المستقبل.»

صافحني ونزل الدرج إلى محطة فلوريدا.

لقد قلت من قبل أنني لا أحب هذه الوظيفة. قبل أن أكمل العام بقليل، حصلت على وظيفة أقل سوءاً في شركة أخرى. خلال الشهرين الأخيرين من عملي في شركة التأمين تلك، رأيت *دون فرناندو* عدة مرات، ولكن دائماً من مسافة بعيدة، لذلك لم أتلق أي دروس أخرى منه أبداً!

صديقي لوكاس

لدي صديق هو الأكثر لطفاً وحياءً في العالم؛ يدعى *لوكاس*، إسم قديم الطراز، في الأربعينات من العمر، قصير ونحيف إلى حد ما، لديه شارب رفيع، وبقعة صلعاء تلتمع بأعلى رأسه. ولأنّه ضعيف البصر، يرتدي نظارة صغيرة ذات عدسات مستديرة بلا إطار.

يمشي دائماً بشكل جانبي حتى لا يتسبب في إزعاج أحد، وبدلاً من أن يقول «المعذرة» ليُفسح له الطريق، يفضّل أن ينفلت بهدوء من جانب واحد. وإن كانت المسافة ضيقة لا تسمح له بالمرور، ينتظر بصبر حتى يتحرك العائق من تلقاء ذاته، سواء كان ذلك العائق جماداً أو حياً، عاقلاً أو غير عاقل. تثير ذعره الكلاب والقطط الضالة، ومن أجل تفاديها يتنقل باستمرار بين جوانب الطريق.

يتحدث بصوت رقيق، يتسم بالشفافية ولا يكاد يُسمع؛ لا يقاطع أحداً أبداً، حتى أنه لا يتمكن أبداً من إكمال أكثر من كلمتين من دون أن يقاطعه أحد. ولا يبدو أنّ هذا يزعجه، بل يشعر بالسعادة لتمكنه من نطق هاتين الكلمتين.

صديقي *لوكاس* متزوج منذ سنوات من امرأة نحيفة، غضوب، عصبية، ذات صوت حاد لا يكاد يطاق، ورئتين قويتين، وأنف مرسوم بدقة، ولسان أفعى؛ وهي، بالإضافة إلى ذلك، تتمتع بمزاج لا يقهر، وقدرة فائقة على الترويض.

لوكاس لديه طفل، بودي لو أعرف كيف نجح في إنجابه. أسمته والدته *خوان فاكوندو*؛ طويل، أشقر، رياضي الجسد، ذكي، مرتاب، نشيط، ويزين جبينه بغرة. اتفق الابن مع أمه على أن *لوكاس* ليس لديه الكثير ليقدمه للعالم، وبالتالي اختارا تجاهل آرائه النادرة والتي قليلاً ما يعبر عنها.

لوكاس يعد أقدم موظف وأقلهم أهمية في شركة كئيبة تعمل في مجال استيراد الاقمشة، مقرّها في مبنى مظلم للغاية، أرضياته من الخشب الأسود، يقع في شارع ألسينا. المالك يُدعى *دون أكويرونتيدو*، رجل أشعث الشعر، ذو شارب شرس وصوت مدوّ، بالإضافة إلى كونه عنيفاً وجشعا. يذهب صديقي *لوكاس* إلى العمل متشحاً بالسواد، في بدلة قديمة جداً تلتمع بفعل الزمن؛ لا يملك سوى قميصٍ واحدٍ بياقة بلاستيكية بالية، هو ذاته الذي ارتداه لأول مرة يوم زواجه، كما يمتلك ربطة عنق واحدة فقط، مهترئة ودهنية تبدو كرباط حذاء. ونظراً لعدم قدرته على تحمل نظرات *دون أكويرونتيدو* المستنكرة، لا يجرؤ *لوكاس*، بخلاف زملائه، على العمل من دون سترته؛ ولكي يحافظ عليها في حالة جيدة، يرتدي زوجاً من واقيات الأكمام الرمادية. راتبه متدن بشكل يثير السخرية، لكنه مع ذلك يمكث في المكتب يومياً بعد انصراف باقي الموظفين ليعمل لمدة ثلاث أو أربع ساعات إضافية، فالمهام التي يكلفه بها *أكويرونتيدو* كثيرة جداً بحيث لا يتمكن من إنجازها خلال ساعات العمل المعتادة.

تزامناً مع قرار *دون أكويرونتيدو* بخفض راتبه مرة أخرى، قررت زوجة *لوكاس* عدم السماح *لخوان فاكوندو* ببدأ دراسته

الثانوية في مدرسة حكومية مجانية. عوضاً عن ذلك، اختارت أن تسجله في معهد باهظ التكاليف في حي بلغرانو. أمام هذه النفقات الجديدة، توقف *لوكاس* عن شراء مجلته المفضلة، ريدرز دايجست. من المفارقات أن المقال الأخير الذي تمكن من قراءته في المجلة يوضح كيف أنه يتعين على الزوج أن يقمع شخصيته الطاغية من أجل إتاحة المجال لزوجته وأولاده لتحقيق ذواتهم.

مع هذا، هناك جانب لافت للنظر في شخصية *لوكاس*، وهو سلوكه بمجرد أن يصعد إلى الحافلة. بشكل عام، هذا ما يحدث:

يطلب *لوكاس* تذكرة ثم يبدأ في البحث عن النقود ببطء، في حين يظل سائق الحافلة على قيد الانتظار، ماداً يده، غير متأكدٍ مما يجب فعله. لا يتعجّل *لوكاس* على الاطلاق، وربما منحه نفاد صبر السائق بعض المتعة. أخيراً، يدفع الأجرة بأكبر عدد ممكن من العملات الصغيرة، يسلّمها قليلاً قليلا، بكميات مختلفة وعلى فترات غير منتظمة، ما يتسبب في إزعاج السائق الذي يضطر إلى إجراء عمليات حسابية معقدة، علاوة على اضطراره إلى الانتباه إلى حركة السير، وإشارات المرور، والركاب الآخرين الذين يصعدون وينزلون، وقيادة الحافلة ذاتها. يفاقم *لوكاس* المشكلة من خلال تضمينه في الأجرة عملة باراغوية قديمة يحتفظ بها لهذا الغرض، ودوماً تعاد إليه في كل مرة. بهذه الطريقة، عادة ما تحصل أخطاء في الحساب، يبدأ على إثرها الجدال. حينها، وبطريقة هادئة لكن حازمة، يشرع *لوكاس* في الدفاع عن حقوقه مستخدماً حججاً متناقضة يصبح معها من المستحيل فهم النقطة التي يجادل عنها. في النهاية، يعمد السائق، في استسلام ضمني،

إلى إلقاء القطع النقدية في الشارع، ربما كوسيلة لقمع رغبته في إلقاء *لوكاس* من الحافلة، أو إلقاء نفسه.

عندما يحلّ الشتاء، يسافر *لوكاس* مبقياً النافذة مفتوحة عن آخرها دائماً، وأول من يعاني من هذا هو *لوكاس* ذاته؛ فقد أصيب بسعال مزمن جراء ذلك، يجبره على البقاء مستيقظاً طوال الليل. خلال فصل الصيف، يغلق النافذة، تاركاً أشعة الشمس تلفح الزجاج وتزيد في حرارته. ولهذا، أصيب *لوكاس* أكثر من مرة بحروق من الدرجة الأولى.

لوكاس ممنوع من التدخين بسبب رئتيه الهشتين، ويجده في الواقع أمراً لا يطاق. رغماً عن ذلك، بمجرد صعوده الحافلة لا يستطيع مقاومة إغراء إشعال سيجار ثقيل من النوع الرخيص، له رائحة كريهة تسبب الاختناق والسعال. عندما يترجّل من الحافلة، يطفىء سيجاره، محتفظاً به لرحلته التالية.

لوكاس نحيل الجسد، يميل لقضاء جلّ وقته جالساً، وليس لديه أدنى اهتمام بالرياضة. لكن عند حلول مساء السبت، يقوم بضبط الراديو المحمول التابع له على أعلى صوت لمتابعة مباراة الملاكمة. أما أيام الآحاد، فيخصصها لكرة القدم، معذباً بقية الركاب بالبث الصاخب.

مقعد الحافلة الخلفي يتسع لخمسة ركاب؛ على الرغم من صغر حجمه، يجلس *لوكاس* بطريقة تتيح المجال لأربعة أو ثلاثة أشخاص فقط على المقعد. أمّا إن كان هناك أربعة جالسون وهو واقف، فإنه يطلب الإذن للجلوس بنبرة ساخطة وموبّخة، يجلس بعدها واضعاً يديه في جيوبه بحيث يظل مرفقاه مغروسين في ضلوع من هم بجواره.

عندما يضطر إلى السفر واقفاً، فإنه دائماً يفك أزرار سترته، ويضبط وضعيتها بحيث تضرب حافتها السفلية وجوه أو أعين الجالسين. وإذا كان في الحافلة شخص يقرأ، فسيقع فريسة سهلة *للوكاس*؛ تجده يراقبه عن كثب، مبقياً رأسه على مقربة من الضوء ليلقي بظله على كتاب الضحية. وبين الحين والآخر يزيح رأسه كما لو كان بالصدفة، حينها يلتهم القارئ، بلهفة، كلمة أو اثنتين قبل أن يعود *لوكاس* إلى هجومه المتواصل.

يعرف صديقي *لوكاس* الأوقات التي تكون فيها الحافلة ممتلئة بالكامل. قبل صعوده الحافلة، يتناول شطيرة سلامي بالجبنة الزرقاء (روكفور) مع كأس من النبيذ الأحمر. ثم، مع فتات الخبز وبقايا السلامي العالقة بين أسنانه، وبفمه المشرع على اتساعه، يسير على طول الحافلة، بحيوية، طالباً إفساح الطريق.

في حال تَمكّنه من الجلوس في المقعد الأمامي، لا يتخلى عنه لأي شخص أبداً. لكن إذا وجد نفسه في أحد الصفوف المتأخرة، في اللحظة التي يرى فيها امرأة تحمل طفلاً بين ذراعيها أو شخصاً مسناً ضعيفاً يصعد على متن الحافلة، يهبّ *لوكاس* فوراً واقفاً، منادياً إياه بصوت عالٍ ليمنحه مقعده. بعدها، وهو واقف، يبدأ بالتفوه ببعض الملاحظات الانتقامية ضد من اختاروا الاحتفاظ بمقاعدهم. وبفضل فصاحته المؤثرة، يضطر بعض الركاب الذين يشعرون بالحرج الشديد إلى النزول في المحطة التالية. حينها ينتهز *لوكاس* الفرصة ويحتل أفضل المقاعد الشاغرة.

يترجل صديقي *لوكاس* من الحافلة وهو في مزاج جيد للغاية: يمشي إلى بيته، على استحياء، على حافة الرصيف. ولأنه لا يحمل مفتاحاً، يتعين عليه دوماً أن يقرع الجرس. إذا كان ثمة شخص بالمنزل، فنادراً ما يرفض فتح الباب له. ولكن إذا لم تكن زوجته أو ابنه هناك، يظل *لوكاس* جالساً على عتبة الباب في انتظار عودتهم.

عودة إلى الأصل

أميل إلى الإيمان فوراً بأي فكرة يطرحها عالم اجتماع أو محلل نفسي خلال برامج الموائد المستديرة المتلفزة. من بين النظارات واللحية ودخان الغليون المتصاعد، قال ذلك الرجل بصوت مؤثر وحاسم، إن الإنسان المعاصر تحول إلى سلعة، وشيئاً فشيئاً، بدأ المجتمع الاستهلاكي في التهامه.

اجتاحني الخوف من جراء ذلك، ودفعتني عملية عقلية مذهلة، لا جدوى من وصفها فمن السهل تخيّلها، إلى إغلاق التلفزيون على الفور والاسراع إلى متجر الإخوة *سواسوريو* للدراجات، الكائن في شارع روزفلت بحي ڤيلا أوركويزا. لا أعلم عدد الإخوة *سواسوريو*، حيث لم يكن هناك سوى رجل واحد نحيل للغاية، عظام وجنتيه بارزة؛ اتضح لي فيما بعد أنه ذكي وماهر وحَرِك.

بينما كان يبيعني الدراجة، ألقى علي بضع جمل من النوع الذي يقوله المعلم لتلميذه: «هذا هو أفضل ما يمكنك فعله، الحياة أصبحت معقدة بشكل عديم الفائدة. الدراجة أداة بسيطة، وعلى الرغم من أنها من صنع البشر، إلا أنها تعني ضمناً أشياء طبيعية كالهواء الطلق، الشمس، التمارين الرياضية.»

وافقته فيما قال. ركبت الدراجة، يرافقني شعور بشيء من الفرح الطفولي، وتوجهت من فوري إلى شوارع حي ڤيلا أوركويزا وحي ڤيلا پويريدون. ثم خلال بضع دقائق وجدت نفسي في

منطقة فيلا لينش، ثم منطقة سانتوس لوچاريس، ومنطقة إل پالومار. «كم هو رائع، هذه الدراجة البسيطة والعادية تتيح لي قطع مسافات طويلة في وقت قصير نسبياً»، قلت لنفسي. بالفعل، لكن ما هي المسافة التي قطعتها، وكم استغرقت من الوقت؟

بما أنني أكره التَكَهُّن والغموض، فقد ذهبتُ لرؤية السيد *سواسوريو* مرة ثانية. هذه المرة، نظر إلي بجدية وارتياب؛ أدركت حينها أن هناك تغيراً عاماً في موقفه.

«لاحظ أنك عدت من تلقاء نفسك، من دون أن أتصل بك»، قال لي.

«يعود العميل الراضي دوماً إلى التاجر النزيه»، أجبته بتملق متكلف.

سألته عن رأيه في جدوى تحسين الدراجة بتركيب عدّاد مسافة. سارع بتوبيخي، قائلا: «عدّاد مسافة من دون عدّاد سرعة هو بمثابة شوكة من دون سكين؛ أحدهما يكمل الآخر، ويمنحه سبباً لوجوده. عدّاد المسافة يخبرك عن المسافة التي قطعتها وعدّاد السرعة يخبرك عن مدى قوة أرجلك الخاملة.»

اعترفت له بأنه على حق؛ وفي غضون دقائق كان الجهازان مثبتين على مقود دراجتي.

«يمشي الناس في الطرقات وهم غارقون في التفكير، هذا إن لم يكونوا مولودين حمقى. لذا، لا تتفاجأ إذا تصادمت مع شخص شارد الذهن. مارأيك في هذا البوق الكهربائي، فيصبح لديك ثلاثي رائع من الاجهزة؟»، قال السيد *سواسوريو*.

«يؤسفني أن أختلف معك، فأنا أكره صوت الأبواق.»

«هذا البوق صنع في إمبراطورية الشمس المشرقة، ولعلك تعلم أن اليابانيين بارعون في توفير المساحات. إنه في حجم علبة ثقاب. لكن بما أنك لا تلقي بالاً إلى أنغام البوق الحضاري، لا يزال بإمكانك الاستمتاع بمزاياه الاضافية: راديو مع مسجل، ساعة ميكانيكية بالتوقيت الرسمي لطوكيو وأديس أبابا وتيچوسيچالپا، مبيّن لدرجة الحرارة والضغط الجوي، وآلة حاسبة صغيرة بسبع وخمسين وظيفة في حال احتجت للحساب خلال مسيرك في طرق الله.»

نظراً لمزاياه المتعددة، كنت سعيداً جداً بالحصول على البوق.

«ماذا عن الطقس؟»، باغتني سؤال السيد *سواسوريو*. كان سؤالاً بلاغياً، أجاب عنه بنفسه: «إنه يوم رائع ومشرق. شهر يناير في بوينس آيرس تذوب فيه أدمغة أولئك المحظوظين بامتلاكها. لكن لا تندهش عندما تعلق في عاصفة وحشية في أكثر الاماكن قسوة، تعود بعدها إلى المنزل مثقلاً بآلاف اللترات من الماء في ملابسك وحذائك.»

لوهلة، شعرت بالحيرة.

واصل السيد *سواسوريو* حديثه: «ونحن على عتبة القرن الحادي والعشرين، هل هناك من هو أحمق لدرجة أن يبتلّ بينما لدينا مثل هذا الجهاز الصغير الذي يتنبأ بالتغيرات في الطقس قبل 72 ساعة من حدوثها، وبدقة متناهية؟» كان في راحة يده جهاز يشبه التلفاز الصغير، قام سريعاً بتعليقه على مقود الدراجة.

«بإمكانه أيضاً أن يعرض خطوط تساوي الضغط الجوي وخطوط تساوي المطر لأستراليا والچابون، ويزوّدك بمعلومات عن

حركة المد والجزر في الخليج العربي. وبواسطة نظام الموجات فوق الصوتية، فإنه يقضي على النيص والكلاب البرية وأفاعي الباسيليسك التي تطارد راكبي الدراجة على جميع الطرق»، أردف السيد *سواسوريو*.

«ماذا عن البعوض والذباب؟»

«لسوء الحظ ، طوّر هذا الثنائي الحقير مناعة ضد أشعة هذا الجهاز القوية. لكن ما أهمية ذلك عندما يكون في استطاعتك الحصول على نسخ ضوئية على وجه واحد أو على الوجهين، بالألوان، وعلى كل أنواع الورق؟»

نظراً لأنني أقضي وقتاً طويلاً في أعمال النسخ، فقد أغرتني هذه الميزة.

«الحاجز الخلفي لا يجب أن يشعر بالغيرة من المقود. كل هذه العجائب على المقود ولا شيء في الخلف، كأنه يتيم»، قال السيد *سواسوريو*، ثم قام بعدها بتركيب صندوق معدني بحجم طبق صغير به أزرار وأذرع خلف المقعد.

«تبدو لي كشخص يفرط في تناول الطعام، ويستمتع بالأكل. عندما تعصف بك آلام الجوع في الطريق، هل هناك شيء أفضل من فرن الأشعة تحت الحمراء هذا لشواء دجاجة أو سمك بالبطاطس والبصل في خمس وعشرين ثانية فقط، يحوّل خلالها هذا المقطّر الصغير الرطوبة في الهواء إلى نبيذ بورچوندي؟»

كان العرض مغرياً ولم تكن لدي القوة الكافية لمقاومته.

«لقد ولدت في هذه المدينة، وعشت في حي ڤيلا أوركويزا لمدة ثلاثة وخمسين عاماً»، قال السيد *سواسوريو*، رافعاً صوته

وذراعه اليمنى. «ونظريتي، التي صارت الآن مضرب للمثل، أن الحي هو بمثابة أسرة كبيرة. وجهك يبدو لي مريحاً، لذا، سأخاطر وأثق في أنك رجلٌ صادق. سأمنحك قرضاً بالدولار، متوجب السداد على ستة وثلاثين قسطاً شهرياً مريحاً. ولأوفر عليك عناء الذهاب إلى معملي، أعطني عنوانك، الذي أعرفه بالفعل عن ظهر قلب، وغداً سيأتي مديري المالي إلى منزلك ومعه بعض المستندات لتوقعها.»

بيدٍ مرتعشة كتبت العنوان على هامش إحدى الصحف.

«هذا الرجل بالتأكيد سيأتي غداً، أليس كذلك؟»، أردت التأكد منه، فقد خشيت أن ينسى وعده.

«بكل تأكيد، ومعه سندات إذنية متعطشة للتوقيع، وكتيبات عن التطورات العلمية الأخرى التي ستتركك عاجزاً عن الكلام. دعني أهنؤك مرة أخرى؛ هذا هو أفضل شيء يمكنك فعله. الحياة أصبحت معقدة بشكل عديم الفائدة، والدراجة بسيطة وطبيعية.»

«شكراً جزيلاً لك»، شكرته بحماس.

ركبت الدراجة، وابتعدت بها، سعيداً، مفعماً بالحياة، وأغنية تنساب على شفتي.

قصة طريفة تنفع حلقة سينمائية في مسلسل كوميدي.

أسلوب حياة

في شبابي، قبل أن أصبح مزارعاً ومربياً للماشية، كنت موظفاً في البلدية. هكذا جرت الأمور:

كنت حينها في الرابعة والعشرين من عمري؛ لم يكن لدي أقرباء، وعشت في نفس هذه الشقة الصغيرة في شارع سانتا فيّ، بين كانينج و أراوز.

من المعروف سلفاً أنّ الحوادث ممكن أن تحصل حتى في مثل هذه المساحة الصغيرة. في حالتي، كان حادثاً صغيرا؛ عندما حاولت فتح الباب للذهاب إلى العمل انكسر المفتاح في القفل!

لجأت إلى المفكّات والكماشة ولكن دون جدوى، قرّرت بعدها الاتصال بمصلح أقفال. أثناء انتظاري مجيء الفنّي، أبلغت العمل بأنني سأصل متأخراً بعض الشيء.

لحسن الحظ، جاء مصلح الأقفال سريعاً. فيما يتعلق بهذا الرجل، أتذكّر فقط أنه بالرغم من أنه بدا شاباً، إلاّ أن شعره أبيض بالكامل. من خلال ثقب الباب، قلت له: «لقد كسرت المفتاح داخل القفل.»

ندّت عنه إيماءة سريعة تدلّ على خيبة الأمل: «من الداخل؟ في هذه الحالة الأمر أصعب كثيرا. سيستغرق الإصلاح ثلاث ساعات على الأقل، وسأضطر إلى طلب مقابل مالي، قدره ...»

وذكر لي مبلغاً كبيراً للغاية!

«أنا لا أملك هذا القدر من المال في المنزل الآن؛ ولكن بمجرد أن أتمكن من الخروج سوف أذهب إلى البنك الذي على ناصية الشارع، وأسحب النقود، وأدفع لك ما تريد»، قلت له.

نظر إلي بعينين موبّختين، كما لو أنني اقترحت عليه أمراً غير أخلاقي، ثم قال بلباقة رصينة: «أنا آسف جداً يا سيدي، لكنني لست فقط عضواً مؤسساً في نقابة صنّاع الأقفال الأرجنتينية، ولكنني أيضاً أحد المعدّين الرئيسيين للميثاق الأعظم لمنظمتنا. في هذا الميثاق، لا يوجد أي أمر متروك للصدفة. إذا حظيت يوماً بشرف قراءة هذا الوثيقة الملهمة، ستعرف، من خلال الفصل المخصص لـ«المبادىء الأساسية»، أنّ صانع الأقفال المثالي ممنوع من تحصيل الأجرة بعد انتهاء العمل.»

ابتسمت مرتاباً: «أنت تمزح بالطبع!»

«سيدي العزيز، إنّ موضوع الميثاق الأعظم لنقابة صنّاع الأقفال الأرجنتينية ليس بالأمر الذي يحتمل المزاح. سنوات من الدراسة الشاقة مكّنتنا من كتابة الميثاق الأعظم الذي تخضع فصوله المختلفة لمبدأ أخلاقي جوهري، حيث لم نهمل فيه أو نتغاضى عن أي تفاصيل. بالطبع، لا يمكن للجميع فهم الميثاق، لأننا في الأغلب نستخدم لغة رمزية أو مقصورة على فئة معينة. ومع ذلك، أعتقد أنك ستفهم بند (7) من مقدمة الوثيقة: (الذهب سيفتح الأبواب، والأبواب ستقدّسه).»

لم أكن مستعداً لقبول مثل هذه السخافة.

«أرجوك؛ تحلّى بالمنطق، افتح لي الباب وسأدفع لك المبلغ دفعة واحدة»، توسّلت إليه.

«أنا آسف يا سيدي؛ كل حرفة لها أخلاقيات، وأهمّها في حرفة صنّاع الأقفال هي عدم المرونة. نهارك سعيد يا سيدي.»

قالها وغادر!

وقفت مكاني عدة لحظات في حيرة؛ ثم اتصلت بالعمل مرة أخرى وأخبرتهم أنني ربما لن أتمكن من الحضور هذا اليوم. بعدها، فكرت في مصلح الأقفال ذي الشعر الأبيض، وقلت لنفسي: «هذا الرجل مجنون، سأقوم بالاتصال بمصلح أقفال آخر؛ لكن هذه المرة، من باب الإحتياط، لن أقول إنني لا أملك نقوداً إلاّ بعد أن يفتح لي الباب.»

ثم بحثت في دليل الهاتف، واتصلت بمصلح آخر.

«ما هو العنوان؟»، سألني صوت أنثوي متحفظ.

«3653، سانتا في، شقة 10 (أ)»

تردَّدَتْ لحظات؛ وجعلتني أعيد عليها العنوان، ثم قالت: «مستحيل يا سيدي؛ الميثاق الأعظم لنقابة صنّاع الأقفال الأرجنتينية يحظر علينا القيام بأي عمل في هذا العنوان.»

استعرت بلهيب الغضب: «إسمعيني الآن! لا تكوني سخي ...»

أغلقتِ الخط دون السماح لي بإنهاء كلامي!

لذا، عدت مجدداً إلى دليل الهاتف وأجريت حوالي عشرين مكالمة إلى عدد كبير من متاجر الأقفال؛ لكنهم رفضوا جميعاً القيام بالمهمة بشكل قاطع، بمجرد سماعهم العنوان.

قلت لنفسي: «حسناً، حسناً، سأبحث عن حلٍ في مكان آخر.»

اتصلت ببوّاب المبنى وشرحت له المشكلة.

أجاب من دون تردد: «هنالك أمران؛ أولاً، أنا لا أعرف كيف أفتح الأقفال؛ وثانياً، حتى لو كنت أعرف فلن أفعل، لأن وظيفتي هي تنظيف المكان وليس تحرير القطط المحبوسة! علاوة على ذلك، أنت لم تكن أبداً سخياً معي في البقشيش.»

بدأت وقتها أشعر بالتوتر الشديد؛ قمت بسلسلة من التصرفات غير المتسقة وعديمة الجدوى: تناولت فنجاناً من القهوة، ودخنت سيجارة، وجلست، ووقفت، وسرت بضع خطوات، وغسلت يدي، وشربت كوباً من الماء.

ثم تذكّرت *مونيكا دي كيافي*، فقمت بالإتصال برقمها؛ مرّت لحظات من الإنتظار، وسمعت صوتها: «*مونيكا*»، صحت متظاهراً بالمرح واللامبالاة. «كيف الحال؟ ما هي أخبارك أيتها الغالية؟.»

ردّها جعلني أرتجف: «أخيراً تذكّرت أن تتصل بي؟ أستطيع أن أقول إنك حقاً تحبني! لم أرك، ولا حتى مصادفة، منذ حوالي خمسة عشر يوما.»

الجدال مع النساء الغاضبات أمرٌ يفوق قدراتي، خاصة في مثل حالة الضعف الذهني التي كنت فيها آنذاك؛ ومع ذلك، حاولت أن أشرح لها سريعاً ما حدث معي. لا أدري ما إذا كانت لم تفهمني أو أنّها لم تشأ الإستماع إليّ. كان آخر ما قالته قبل إنهاء المكالمة هو: «أنا لست لعبة بيد من هبّ ودبّ!»

لا شعورياً، قمت بأداء سلسلة أخرى من التصرفات غير المنطقية وعديمة الفائدة.

ثم اتصلت بالعمل، آملاً في أن يأتي أحد زملائي الموظفين ويفتح لي الباب. حظّي السيء أوقعني مع *إنزو باريديس* الذي

كنت أكرهه، بإعتباره غبياً ومهرجاً. «حقاً لا يمكنك الخروج من منزلك؟»، صاح بعدائية عبر الهاتف؛ «يبدو أنك لم تعد تجيد ابتكار الأعذار لتجنب القدوم إلى العمل!»

تملّكني ما يشبه الرغبة في القتل! أغلقت الخط، ثم عاودت الإتصال ثانية وسألت عن *ميچيل آنخل لاپورتا*، والذي كان أقل حمقا. في الواقع، بدا مهتماً بإيجاد حلٍ لي: «أخبرني، هل انكسر المفتاح أم القفل؟»

«المفتاح.»

«وهل بقي داخل القفل؟»

«أجل، بقي نصفه في الداخل، والنصف الآخر في الخارج»، أجبته، وأنا مستاءٌ جداً من هذا الاستجواب.

«ألم تحاول إخراج القطعة الصغيرة العالقة بالداخل باستخدام مفك البراغي؟»

«نعم، بالطبع حاولت، لكن من دون جدوى.»

«أوه؛ حسناً، عليك إذاً الاتصال بمصلح الأقفال.»

«قد فعلت»، أجبته، قامعاً الغضب الذي كاد يخنقني؛ «لكنهم يريدون مني الدفع مقدما.»

«حسناً، ادفع لهم وينتهي الأمر!»

«لكنني لا أملك المبلغ المطلوب.»

بدا وكأنه شعر بالملل: «أيها الرجل النحيل، بالتأكيد لديك العديد من المشاكل!»

لم أتمكّن من العثور على إجابة سريعة؛ كان يجب أن أقترض منه بعض المال، لكن ملاحظته تلك تركتني في حيرة من أمري، ولم أستطع التفكير في أي شيء.

وهكذا، بإخفاق، انتهى ذلك اليوم!

في اليوم التالي، استيقظت مبكراً لإجراء المزيد من المكالمات الهاتفية؛ بيد أنّي وجدت الهاتف معطلاً، وهو أمر يحدث كثيرا. صارت لدي مشكلة أخرى غير قابلة للحل: كيف أطلب خدمة إصلاح القفل من دون هاتف لإجراء المكالمة؟

خرجت إلى الشرفة وبدأت أصرخ لأثير إنتباه الأشخاص الذين يسيرون على طول شارع سانتا فيّ. كان ضجيج الشارع يصمّ الآذان؛ من بإمكانه سماع صراخ آتٍ من الطابق العاشر؟ في الأغلب، يرفع شخص ما رأسه بحيرة، ثم يواصل طريقه!

خطرت لي فكرة؛ أخرجت الآلة الكاتبة، وعلى خمس ورقات قمت بطباعة الرسالة التالية: «سيدتي أو سيدي: لقد انكسر مفتاحي في القفل، وأنا محبوس في المنزل منذ يومين. من فضلك، افعل شيئاً لمساعدتي على الخروج، العنوان هو 3653، سانتا في، شقة 10 (أ).»

رميت الورقات الخمس من على درابزين الشرفة؛ لكن كانت احتمالات السقوط العمودي ضئيلة من ذلك الارتفاع. ارتجفت الأوراق بعشوائية وقد حملتها ريحٌ لعوب؛ سقطت ثلاثة منها في الشارع، ودهستها السيارات المتتابعة وطمست معالمها على الفور بسواد عجلاتها. هبطت واحدة فوق مظلة متجر. سقطت الخامسة على الرصيف، والتقطها سريعاً رجلٌ ضئيلٌ وقرأها؛ ثم نظر إلى الأعلى، مظلّلاً عينيه بيده اليسرى. لوّحت للرجل في بادرة ودّية، فما كان منه إلّا أن مزّق الورقة إلى قطع صغيرة، وبإيماءة غاضبة ألقى بها في المجاري!

باختصار، مرت علي أسابيع عديدة واصلت فيها القيام بمحاولات متنوعة. رميت مئات الرسائل من على الشرفة؛ إمّا أن الناس لم يقرؤوها، أو أنّهم قرأوها ولم يأخذوها على محمل الجد.

ذات يوم، رأيت ظرفاً مرّرَه أحدهم من تحت باب شقتي؛ كان من شركة الهاتف، تخطرني بقطع الخدمة لعدم السداد! ثمّ، على التوالي، قطعوا عنّي الغاز والكهرباء والمياه.

في البداية، استهلكت مؤونتي بطريقة غير منطقية، لكنني أدركت خطورة ما كنت أفعله في الوقت المناسب. قمت عندها بوضع حاويات على الشرفة لجمع مياه الأمطار؛ واقتلعت نباتات الزينة غير المفيدة وزرعت في أوانيها الطماطم والخس والعدس وبقوليات أخرى، وأخذت أعتني بها بحبٍ وجهدٍ مضني. ولأنني أحتاج أيضاً إلى البروتين الحيواني، فقد تعلمت إصطياد وتربية الحشرات والعناكب والقوارض، وجعلها تتكاثر في الأسر؛ أحياناً، يحالفني الحظ في اصطياد عصفور أو حمامة.

في الأيام المشمسة، كنت أوقد النار بواسطة عدسة مكبرة وقطعة من الورق؛ وأحرق الكتب والأثاث وألواح خشب الأرضيات ببطء من أجل الوقود؛ بتّ دائماً اكتشف أن في المنزل أشياء أكثر من اللازم.

أعيش الآن براحة تامة، رغم افتقاري لبعض الأشياء؛ على سبيل المثال، لا أعرف ما الذي يحدث في أي مكان آخر، ولا أقرأ الصحف، ولا أتمكن من تشغيل التلفزيون أو الراديو.

أراقب العالم الخارجي من الشرفة وألاحظ بعض التغييرات.

ذات مـرة، توقـف التـرام عـن السـير. وفـي مناسـبة أخـرى، أصبـح شـارع سـانتا فـيّ المـزدوج شـارعاً ذا اتجـاه واحـد! لا أعلـم بالضبـط كم عامـاً مضـى منـذ حـدث ذلـك. لقـد فقـدت كل إحسـاسٍ بالوقـت؛ لكـن المـرآة، ورأسـي الأصلـع، ولحيتـي البيضـاء الطويلـة، والألـم فـي مفاصلـي يخبروننـي أننـي كبيـرٌ فـي السـن!

للترفيـه عـن نفسـي أتـركُ أفـكاري تجـول؛ فـلا خـوفٌ لـدي، ولا طموحـات!

خلاصة القول، أنا سعيدٌ نسبيا!

هناك رجل معتاد على ضربي بمظلة على رأسي

ثمّة رجل من عادته أن يضربني بمظلة على رأسي. لقد مرّت خمس سنوات بالضبط منذ اليوم الذي بدأ فيه بضربي على رأسي بمظلة. في الأيام الأول لم أستطع تحمّل ذلك، ولكنني الآن معتاد عليه.

أنا لا اعرف اسمه؛ أعلم أنه عاديّ المظهر، يرتدي بدلة رمادية، أشيب الشعر إلى حد ما، وله وجه مألوف. التقيت به قبل خمس سنوات ذات صباح قائظ. كنت جالساً على مقعد في ظل شجرة في منتزه باليرمو، أقرأ الجريدة. فجأة شعرت بشيء يلمس رأسي. كان الرجل ذاته الذي يواصل ضربي الآن بمظلة، وأنا أكتب، بطريقة آلية وبلا أدنى مبالاة!

استدرت حينها، وقد امتلأت غيظا؛ ولكنّه استمر في ضربي! سألته إن كان مجنوناً؛ لم يبدُ أنه يسمعني. هدّدته باستدعاء رجال الأمن، غير أنه ظلّ هادئاً ومتماسكا، وواصل مهمّته. بعد لحظات من التردد، وقد رأيت أنّه ليس على وشك تغيير موقفه، وقفت ولكمته في وجهه. سقط الرجل أرضاً، مصدراً أنيناً خافتا. ثمّ نهض من فوره، باذلاً فيما يبدو جهداً كبيراً، وبصمت بدأ يضربني بالمظلة على رأسي من جديد. كان أنفه ينزف، في تلك اللحظة شعرت بالأسى تجاه الرجل، شعرت بالندم لأنني ضربته بذلك الشكل. لأنّ الرجل، في الحقيقة، لم يكن يضربني بشدة،

إنّما يوجّه لي ضربات خفيفة، غير مؤلمة البتة. بالطبع، كانت تلك الضربات مزعجة إلى أبعد حدّ. كلّنا نعلم أنّه حينما تحطّ ذبابة على جبهتنا لا نشعر بأيّ ألم أبدا؛ ما نشعر به هو الانزعاج! حسناً، كانت تلك المظلّة بمثابة ذبابة عملاقة تهبط على رأسي، على فترات منتظمة، مراراً وتكرارا.

حاولت الهرب، مقتنعا بأنني كنت أتعامل مع رجل مجنون، لكنّ الرجل تبعني، ملتزماً الصمت، واستمر في ضربي. لذلك شرعت في الجري (عند هذه النقطة، دعوني أشير إلى أنّ هناك القليل فقط من الناس يمكنهم مجاراتي في سرعة الجري). انطلق خلفي، محاولاً عبثاً أن يضربني. كان الرجل يلهث، ويلهث، ويلهث، ويزفر بشدة، حتى ظننت أنني إذا واصلت إجباره على الجري بتلك السرعة فسيخرّ ميتاً على الفور في مكانه.

من أجل ذلك توقفت عن الجري، وبدأت أمشي من جديد. نظرت إليه؛ لم يكن هناك أدنى أثر للامتنان أو التأنيب على ملامحه. فقط استمر بضربي على رأسي بالمظلة! فكرت في الذهاب إلى مركز الشرطة، شاكياً، «يا حضرة الضابط، هذا الرجل يضربني بمظلة على رأسي.» لكن ربّما ستكون دعوى لم يسبق لها مثيل، وسوف ينظر إليّ الضابط بريبة ،ويطلب أوراقي الثبوتية، ويشرع في طرح أسئلة كثيرة محرجة، وربما ينتهي به الأمر إلى اعتقالي!

بدا لي حينها أنّه من الأفضل أن أعود إلى المنزل؛ ركبت الحافلة رقم 67، وصعد هو ورائي، مستمراً في ضربي طوال الوقت. جلست على المقعد الأول، ووقف هو بجانبي تماماً، يده

اليسرى تمسك بالعمود، بينما يده اليمنى تضربني بالمظلة بلا هوادة. بدأ الركاب في تبادل الابتسامات الخجولة، وأخذ السائق يراقبنا من خلال مرآة الرؤية الخلفية. شيئاً فشيئاً، استولت على الركاب نوبة ضحك شديدة، نوبة من الضحك الصاخب والمتواصل. كنت احترق من شدّة شعوري بالخزي، في حين استمر مضطهدي في ضربي بالمظلة، غير آبهٍ للضحك من حوله!

نزلت، أو بالأحرى نزلنا، عند جسر پاسيفيك. مشينا على طول جادّة سانتا فيّ، والجميع من حولنا يلتفتون بغباء ليحدّقوا فينا. فكّرت أن أقول لهم: «ما الذي تنظرون إليه أيّها الحمقى؟ ألم تروا من قبل رجلاً يضرب رجلاً آخر على رأسه بمظلة؟»؛ لكن خطر لي أنّهم على الأرجح لم يروا مثل هذا المشهد مطلقا. بعدها، بدأ خمسة أو ستة أولاد في مطاردتنا وهم يصرخون كالمجانين!

لكن كانت لدي خطة. حين وصلنا إلى منزلي، أردت أن أصفق الباب في وجهه لكنني لم أتمكن من ذلك. لا بدّ أنه قرأ أفكاري، فقد أمسك بمقبض الباب بيد ثابتة، وبمقاومة بسيطة شقّ طريقه إلى الداخل معي!

منذ ذلك الوقت، استمر في ضربي بالمظلة على رأسي. على حد علمي، لم يذق طعم النوم ولم يأكل أي شيء، فقط وبكل بساطة يضربني. كان يشاركني في كل أفعالي، حتى في أكثرها خصوصية وحميمية. أذكر أنّ الضربات في البداية منعتني من النوم؛ أمّا الآن، أظنّ أنه سيكون من المستحيل أن أنام من دونها!

ومع ذلك، فإن علاقتنا لم تكن دائماً جيدة. فقد طلبت منه مرّات كثيرة، وبكل النبرات الممكنة، أن يشرح لي سلوكه، لكن دون

جدوى. ظلّ يضربني بسكون على رأسي بالمظلة. في مناسبات متعددة، قمت بلكمه، وركله، وحتى - ليغفر الله لي - ضربه بالمظلة. بيد أنه تقبّل تلك الضربات بخنوع، تقبّلها كما لو أنّها مجرد جزء آخر من وظيفته. هذه الحقيقة هي بالتحديد أغرب ما في شخصيته: ذلك الإيمان الراسخ بعمله، ذلك الافتقار التامّ للعداء والكراهية. باختصار، هي اليقين بأنّه يقوم بمهمّة سرية عليا!

على الرغم من انعدام حاجاته الفسيولوجية، أعلم أنّه يشعر بالألم عندما أقوم بضربه، أعلم أنه ضعيف، أعلم أنه فان. أعلم أيضاً أنّ بإمكاني التخلّص منه برصاصة واحدة! ما لا أعرفه هو إن كان من الأفضل لتلك الرصاصة أن تقتله أو تقتلني! كما أنني لا أعلم، في حالة متنا جميعا، إن كان لن يواصل ضربي على رأسي بالمظلة. على أية حال، هذا التفكير لا طائل من وراءه الآن؛ فأنا أعترف بأنني لن أجرؤ على قتله أو حتى قتل نفسي!

من ناحية ثانية، أدركت في الآونة الأخيرة أنّني لا أستطيع العيش من دون تلك الضربات. الآن، وبوتيرة متزايدة، يهاجمني هاجس معين، قلق جديد ينهش في روحي: القلق الناجم عن فكرة أنّ هذا الرجل، ربما حينما أكون في أمسّ الحاجة إليه، سوف يغادر، ولن أشعر بعد الآن بضربات المظلة الخفيفة التي تجعلني أنام بعمق وهدوء!

العودة

في عام 1965، كنت في الثالثة والعشرين من عمري، أدرس لأغدو معلّم لغة وآداب للمرحلة الثانوية. الوقت سبتمبر، أوائل الربيع؛ في الفجر الباكر لأحد الأيام، كنت أذاكر في غرفتي، حيث أسكن في الطابق الخامس من المبني السكني الوحيد في ذلك المربع في شارع كوستاريكا.

كنت أشعر بالكسل نوعاً ما، وبين الحين والآخر تجول عيناي خارج النافذة، حيث بإمكاني رؤية الشارع والحديقة المشذّبة، على الرصيف المقابل، للمسنّ *دون سيزاريو* الذي يحتلّ منزله الأرض الركنيّة ذات الزاوية المشطوفة، وبالتالي جاء المنزل على شكلٍ خماسيٍ غير منتظم.

بجانب منزل *دون سيزاريو* ينتصب منزل قديم وكبير، يخص عائلة *بيرناسكوني*، وهم أناس محبوبون، يقومون عادة بأمورٍ جيّدة وجميلة؛ لديهم ثلاث بنات، وقعت في حب أكبرهنّ، *آدريانا*. لذلك، بين الحين والآخر، ألقي نظرة تلقائية على الرصيف المقابل، كعادة وجدانية أكثر منها توقعاً لرؤيتها في مثل تلك الساعة المبكرة.

كالمعتاد، كان المسنّ *دون سيزاريو* يروي حديقة منزله الأثيرة، التي يفصل بينها وبين الرصيف بوابة حديدية منخفضة وثلاث درجات حجرية.

الشارع خالٍ من المارة؛ لذا، أثار انتباهي، بشكلٍ حتميّ، رجلٌ ظهر من المربع المجاور، يتقدم تجاهنا على الرصيف ذاته الذي يمتدّ أمام منزليّ *دون سيزاريو* و *بيرناسكوني*. كيف لا يلفت ذلك الرجل انتباهي! أهو متسوّل أو متشرّد، من هواة الخلقان الداكنة؟

كان ملتحياً ونحيفاً، رأسه مغطى بقبّعة من القش، صفراء ومشوّهة؛ يلتحف بمعطفٍ رماديٍّ ممزقٍ، على الرغم من حرارة الجوّ، ويحملُ حقيبة ضخمة متسخة، أظنّه يحتفظ فيها بالصدقات أو بقايا الطعام التي يحصل عليها.

واصلتُ المراقبة.

توقّف المتشرّد أمام منزل *دون سيزاريو* وطلب من الرجل المسنّ شيئاً من خلال قضبان البوّابة. كان المسنّ سيّىء الخلق؛ ببساطة، ومن دون كلام أو إجابة، أومأ بيده للمتسوّل كما لو كان يطرده. بيد أنّ المتسوّل ألحّ بصوت منخفض؛ بعدها سمعتُ الرجل المسن بوضوح يصرخ: «إذهب من هنا، هيّا، ولا تزعجني»!

ومع ذلك، ألحّ المتشرد مرة أخرى في المسألة، صاعداً الدرجات الثلاث، وأمسك بالبوّابة الحديدية محاولاً فتحها. حينئذ، وقد فقد صبره تماماً، دفعه *دون سيزاريو* بعيدا. زلّت قدما المتسوّل على الدرج المبلّل؛ حاول، دون جدوى، التمسّك بأحد قضبان البوابة، وسقط بعنفٍ على الأرض. في تلك اللحظة الومضية، رأيت ساقيه ترتفعان إلى الأعلى، وسمعت صوتاً حاداً لجمجمته وهي تصطدم بالدرجة الأولى.

هبط *دون سيزاريو* إلى الشارع، وانحنى عليه، متحسساً صدره. على الفور، أمسك المسنّ بقدميّ المتسول وسحبه إلى حافة

الرصيف؛ ثم دخل منزله وأغلق الباب، متيقناً من عدم وجود شهود على جريمته غير المقصودة.

الشاهد الوحيد كان أنا!

بعد مرور فترة، مرّ رجلٌ وتوقّف بجانب جثة المتسوّل. ثم تبعه متجمهرون آخرون، ووصلت الشرطة. بعدها وُضع المتسوّل في سيارة إسعاف، نقلته بعيداً.

هذا كلّ ما حدث؛ ولم يجرِ الحديث حول الأمر مرة أخرى.

من جهتي، كنت حريصاً جداً على عدم فتح فمي؛ ربما تصرّفت بشكلٍ سيء، لكن ما الذي سأجنيه من إتّهام ذلك المسنّ الذي لم يؤذني قط؟ من ناحية أخرى، بما أنّه لم يكن في نيّته قتل المتسوّل، لم يبد لي صواباً أن تُفضي الإجراءات القانونية إلى تنغيص السنوات الأخيرة من حياته؛ لذا، فكّرت أنّه من الأفضل تركه لضميره.

شيئاً فشيئاً بدأت أنسى الحادثة. ومع ذلك، في كلّ مرة أرى فيها دون *سيزاريو* ، ينتابني شعورٌ غريب؛ حينها أفكر: «هذا المسنّ لا يعلم أنّني الوحيد في هذا العالم الذي يعرف سره». منذ ذلك الوقت، لا أدري لماذا، صرت أتجنّب ملاقاته، ولم أجرؤ على التحدّث معه مرة أخرى.

• • •

في عام 1969، وقد بلغت السادسة والعشرين من العمر، حصلت على شهادة تدريس اللغة الأسبانية والأدب. *آدريانا برناسكوني* لم تتزوجني، ولكن اقترنت بشخصٍ آخر؛ من يدري إن كان يحبها كما أحببتها أنا أو يستحقّها مثلي!

في تلك الفترة، كانت *آدريانا*، التي تزداد جمالاً مع الأيام، حاملاً، وموعد الولادة وشيك. كعهدها، لا تزال تعيش في نفس المنزل القديم الكبير؛ لأنّ زوجها، أكاد لا أصدّق، ليس في مقدوره شراءُ منزلٍ خاصٍ به! في ذلك الصباح المرهق من شهر ديسمبر، قبيل الساعة الثامنة صباحاً، كنت أعطي درساً خاصاً في قواعد اللغة لبعض طلاب المرحلة الثانوية من أجل إجتياز الامتحانات؛ كعادتي، بين الفينة والأخرى، ألقي نظرة حزينة على الشارع.

فجأة، تعثّرت نبضات قلبي، حرفياً، وظننت أنني أمر بحالة هلوسة!

رأيت المتسوّل الذي قتله *دون سيزاريو*؛ يقترب قادماً من نفس المسار، تماماً كما حصل قبل أربع سنوات، مرتدياً نفس الملابس الرثّة: المعطف الرمادي، قبّعة القش المشوّهة، والحقيبة الشهيرة.

ناسياً وجود طلّابي، هرعت إلى النافذة. تباطأت خطوات المتسوّل تدريجياً، وكأنّه بالفعل قد اقترب من وجهته!

«لقد بُعث من جديد، وقد جاء لينتقم من *دون سيزاريو*»، قلت في نفسي.

لكنّ المتسوّل مشى على الرصيف، مارّا من أمام البوابة الحديدية لمنزل الرجل المسنّ، وتابع المسير. ثم توقّف عند باب منزل *آدريانا*، أدار المقبض ودخل المنزل.

«سأعود حالا!»، قلت للطلاب.

بدافع من جنون القلق، لم أنتظر وصول المصعد، ونزلت سريعاً على السلالم؛ اندفعت ركضاً عبر الشارع، وبشكلٍ عاصفٍ دخلت منزل *آدريانا*، حيث من العرف في ذلك الزمانٍ أن تكون البيوت في حيّنا مفتوحة خلال النهار.

«مرحبا»، حيّتني والدتها الواقفة خلف باب الصالة، وهي تهمّ بالمغادرة، «يالها من معجزة طيّبة، أتت بك إلينا».

عانقتني وقبّلتني، فهي على الدوام تنظر إليّ بشكل إيجابي؛ لكنني لم أفهم تماماً ما كان يحدث حولي. غير أنّي علمت بعد ذلك أنّ *آدريانا* أصبحت أمّاً، وأنّ الجميع سعداء ومنفعلون للغاية. لم يسعني حينئذٍ إلّا أن أصافح غريمي المنتصر، بابتسامته التي تعلو وجهه الغبيّ!

حرت في كيفية الإستعلام عن المتسوّل؛ وفكّرت في ما إذا كان من الأفضل أن التزم الصمت. ثم اهتديت إلى حل وسط.

بلا مبالاة مصطنعة، توجّهت إليهم بالقول: «في الواقع، سمحت لنفسي بالدخول دون قرع الجرس لأنّني اعتقدت أنّني رأيت متسوّلا بحقيبة كبيرة قذرة يتسلّل إلى منزلكم، فخشيت أن تكون في نيته السرقة».

نظر الجميع إليّ، متفاجئين: متسوّل؟ حقيبة؟ سرقة؟ لقد كانوا جميعاً في غرفة المعيشة طوال الوقت، ومع ذلك لم يدركوا ما كنت أتحدّث عنه! استدركت حينها قائلا: «يبدو أنني بالتأكيد كنت مخطئا».

ثم دعوني إلى الغرفة التي بها *آدريانا* وطفلها؛ في مثل هذه المواقف، لا أعرف أبداً ماذا أقول! هنّأتها وقبّلتها، ونظرت إلى الطفل الصغير. سألتهم عن الإسم الذي سيمنحونه إياه؛ *چوستافو*، قالوا لي، على إسم والده؛ كنت سأعجب بإسم *فيرناندو* أكثر، بيد أنني لم أقل شيئا!

عندما عدت إلى المنزل، فكّرت: «كان ذلك هو المتسوّل الذي قتله المسنّ *دون سيزاريو*، ليس لدي شكّ في ذلك. غير أنّه لم يعد لينتقم، بل ليولد مجدّداً في جسد طفل *آدريانا*.»

مع ذلك، بعد يومين أو ثلاثة، بدت لي فرضيتي تلك سخيفة، ونسيتها تدريجياً.

• • •

كنت حقاً سأنساها تماماً، لولا حادثة حصلت عام 1979، أعادتها إلى ذاكرتي من جديد. مع تقدّمي في العمر، وشعوري اليومي بقدرتي على القيام بأشياءَ أقلّ من ذي قبل، التزمت وقتئذ، مع ملحق أدبي، بكتابة مراجعة نقدية لرواية مملّة للغاية. لهذا السبب، في ذلك الصباح، كنت أعير انتباهي للحظات فقط للكتاب الذي أقرأ فيه بجوار النافذة؛ ثمّ، بخمولٍ وذهنٍ مشتت، أسمح لعينيّ بالتجوّل هنا وهناك.

كان چوستاڤو، نجل *آدريانا*، يلعب على سطح المنزل. بالمناسبة، كانت لعبة غير ناضجة بالنسبة لشخصٍ في مثل عمره. توقّعت أنّ الصبيّ قد ورث قلّة الذكاء عن والده، وتخيّلت أنّه لو كان ابني لكان بلا شك سيجد طريقة أقل فجاجة للترفيه عن نفسه.

وضع الصبيّ صفاً من العلب المعدنية الفارغة على الجدار الفاصل بين منزله ومنزل *دون سيزاريو*، وشرع في محاولة إسقاطها بقذفها بالحصى من على بعد ثلاثة أو أربعة أمتار. بطبيعة الحال، سقطت كلّ الحصوات والعلب تقريباً في حديقة *دون سيزاريو*. خطر لي أن المسنّ، الذي لم يكن متواجداً في ذلك الوقت، سيصاب بنوبة غضبٍ حقيقية عندما يكتشف أن عدداً كبيراً من أزهاره قد دُمّرت!

في تلك اللحظة بالذات، خرج *دون سيزاريو* من المنزل إلى الحديقة؛ كان حقًا طاعناً في السنّ، يسير بتردّدٍ شديد، يقدّم بحذرٍ قدماً ثمّ الأخرى. مشى بتخوّفٍ متمهّلاً إلى بوابة الحديقة، واستعدّ لنزول الدرجات الثلاث المؤدية إلى الرصيف.

في الوقت ذاته، ضرب *چوستاڤو* - الذي لم يكن في مقدوره رؤية المسنّ - آخر علبة، فارتدّت مصطدمةً مرتين أو ثلاث بحواف الجدران، ثمّ سقطت محدثةً صوتاً عالياً على الممشى المبلّط في حديقة *دون سيزاريو*. كان هذا الأخير في منتصف الدرجات الثلاث؛ فزعاً من حدّة الصوت، ندّت عن المسنّ حركة فجائية، انزلق إثرها بعنف، رجلاه إلى الأعلى، محطّماً جمجمته بِدويّ على الدرجة الأولى.

رأيت كلّ ذلك، لكنّ الطفل لم ير المسنّ، ولم ير المسنّ الطفل! بدافع ما، غادر *چوستاڤو* السطح بعدها. في غضون ثوانٍ قليلة، تجمهر الكثير من الناس حول جثّة *دون سيزاريو*. كان من الواضح أن سبب وفاته سقوط عرضي.

في اليوم التالي، عازماً على إنهاء قراءة الرواية التي من المفترض أن أراجعها، استيقظت باكراً، وأتخذت من فوري مكاناً مع الكتاب بجوار النافذة. توافد العديد من الأشخاص إلى المنزل الخماسي، حيث تقام مراسم عزاء *دون سيزاريو*، يدخّنون ويتحدّثون على الرصيف.

تنحّى الناس جانباً باشمئزاز وتوجّس عندما خرج المتسوّل، بعد فترة وجيزة، من منزل *آدريانا برناسكوني* بأسماله البالية، ومعطفه، وقبعته المشوّهة، وحقيبته المعتادة. مرّ عبر تجمّع

الرجال والنساء، واختفى ببطءٍ في البعد، نحو ذات الإتجاه الذي أتى منه مرتين!

علمتُ في الظهيرة، بكلّ أسفٍ لكن دون دهشة، أنّ *جوستافو* لم يستيقظ في سريره ذلك الصباح. بدأ والديه في بحثٍ محزنٍ عنه، استمرّ بأملٍ عنيدٍ حتى يومنا هذا.

لم أمتلك القدرة على إخبارهم بالتخلّي عنه!

خرافات مريحة

أنا أتعيّش من خرافات الآخرين، ولا أجني الكثير من ذلك، فالعمل مرهق للغاية.

وظيفتي الأولى كانت في مصنع مياه غازية معبئة في قنان زجاجية. يعتقد مدير المصنع - من يدري لماذا - أن واحدة من بين آلاف القناني (لكن أي واحدة؟) بها قنبلة ذرية. كما كان يعتقد أن مجرد وجود شخص ما يكفي لمنع إنطلاق تلك الطاقة المخيفة. كنّا عدة موظفين، واحد لكل شاحنة. مهمتي تتمثل في البقاء جالساً على سطحٍ غير مستوٍ من القناني يومياً طوال مدة الست ساعات اللازمة لتوزيع المياه الغازية. مهمة شاقة، عانيت فيها في من اهتزازات الشاحنة، ومقعد مؤلم وغير مريح. بالاضافة إلى ذلك، كان الطريق مملاً، وسائقو الشاحنات من عامة الشعب. بين الحين والآخر، تتفجر إحدى القناني (ليست التي بها القنبلة الذرية) وتعرّضني لإصابات طفيفة. في النهاية، تعبت من ذلك واستقلت من العمل. سارع المدير من فوره بتعيين رجل آخر مكاني، فمجرد وجوده سيمنع انفجار القنبلة الذرية.

على إثر ذلك، سرعان ما علمت أن سيدة عانس في حي بلچرانو لديها مجموعة من السلاحف، وأنها تعتقد - من يدري لماذا - أن أحداها (لكن أي واحدة؟) هي الشيطان متجسداً على هيئة سلحفاة. نظراً لأن السيدة التي تتشح بالسواد وتسبّح

بمسبحة لا تستطيع متابعة السلاحف باستمرار، فقد وظفتني لأقوم بتلك المهمة أثناء الليل. «كما يعلم الجميع، فإن واحدة من هذه السلاحف هي الشيطان ذاته. حالما ترى أي منهن تبدأ في إنبات زوج من الأجنحة كالتنين، لا تتوانى في إخباري على الفور، لأن تلك السلحفاة من دون أدنى شك هي الشيطان. عندها سنوقد النيران ونحرقها حية، فتختفي كل الشرور من على وجه الأرض»، شرحت لي السيدة طبيعة العمل.

بقيت مستيقظاً في الليالي الأول أراقب السلاحف. «يا لها من حيوانات غبية وسمجة»، قلت في نفسي. فيما بعد، شعرت أن حماستي للعمل غير مبررة. صرت بمجرد أن تخلد العانس إلى النوم، ألفّ رجلاي في بطانية، وأتكوّر على كرسي، وأنام الليل بأسره. لذلك، لم أتمكن أبداً من اكتشاف أي السلاحف هي الشيطان. لم يطل بي المقام حتى أخطرت السيدة برغبتي في التخلي عن هذه الوظيفة، لأن البقاء مستيقظاً طوال الليل يضرّ بصحتي.

علاوة على ذلك، كنت قد علمت للتو أن هناك قصراً عتيقاً في منطقة سان إيسيدرو، يطل على واد سحيق، به تمثال صغير لفتاة فرنسية جميلة من أواخر القرن التاسع عشر. يعتقد ملّاك القصر وهما زوجان كبيران في السن - من يعلم لماذا - أن تلك الفتاة حزينة، أصابها مرض العشق، وأنّها إذا لم تحصل على عاشق فسوف تموت قريباً.

منحوني راتباً، وأصبحت الحبيب للتمثال الصغير. شرعت في زيارة الفتاة؛ العجوزان يتركاننا لوحدنا، رغم أني أشك أنهم كانوا

يتجسسون علينا. استقبلتني الفتاة في صالون كئيب، جلسنا فيه على أريكة بالية. أخذت أقدم لها زهوراً، شوكولاتة، أو كتبا؛ وتارة أكتب لها قصائد ورسائل غرام، وهي بدورها تعزف على البيانو بهدوء، وتمنحني نظرات لطيفة وحانية. كنت أناديها «حبيبتي»، وأختلس منها قبلات، وأحياناً أتجاوز ما تسمح به لباقة وبراءة فتاة من أواخر القرن التاسع عشر. جيزيل كانت تبادلني الحب كذلك، تخفض عينيها وتتنهد بنعومة، وتقول: «متى سنتزوج؟». أجيبها: «قريباً، فأنا لا أزال أدخر المال.» نعم، لكنّي واصلت تأجيل الموعد، فقد كنت عاجزاً عن توفير ما يكفي لزواجنا؛ كما قلت سابقاً، لا يجني المرء الكثير من العيش على خرافات الآخرين.

جار أحمق

جاري في الشقة المقابلة رجل أحمق. على العكس منه، أنا ذكيّ وظريف. المديرون التنفيذيون الآخرون في شركتنا، شركة رائدة في مجالها، يستمتعون برفقتي دائماً؛ أمّا مع جاري الأحمق، فلا يمكنهم الاستمتاع أبدا!

عندما انتقلت إلى شقتي الكبيرة - لديّ شقة كبيرة في جادّة ليبرتادور، نصف طابق، مفروشة ومجهزة بجميع وسائل الراحة، على مستوى الإدارة التنفيذية - كما ذكرت، عندما انتقلت إلى شقتي الكبيرة قابلت جاري الأحمق في المصعد؛ فوراً قلت لنفسي: «هذا الرجل أحمق». أدركت أنه أحمق لأنني فطنٌ للغاية، وأيضاً لأنّ وجهه ينمّ عن الحمق! في تناقضٍ واضح معه، أنا أتمتّع بمظهرٍ أنيق؛ مظهر شخصٍ ديناميكي، ذكيّ، كفؤ، ذو شخصية لطيفة وملامح تشي بالنجاح. كنت اتندّر على جبينه الضيّق، عينيه الخاملتين، أنفه العريض، شفته السفلى المتدلّية، وعنقه الضخم: اجتمعت كلّها لتخلق مظهراً باهتا، بلا أفق للمستقبل أو أدنى رغبة في التقدم؛ باختصار، مظهر رجل أحمق! في مرآة المصعد قارنت مظهره الخارجي كرجل أحمق مع مظهري كرجل ديناميكي: بلا شك، مالت المقارنة لصالح الشخص الديناميكي. من جديد أعجبت بملامحي الذكية، وعينيّ المفعمتين بالحيوية، وأنفي المستقيم: السمات النموذجية لرجل موهوب. من ناحية

أخرى، أناقتي يضرب بها المثل في الشركة، فأنا طويلٌ ونحيف، دوماً مهندم الشعر، حليق الوجه، عطر الجسد. أمّا جاري الأحمق فهو قصير وبدين، الأمر الذي يجعله يشبه البرميل إلى حدّ مذهل، وشعره مقصوص بشكل سيّئ، ولحيته نصف نامية! أنا أرتدي ملابس مثالية، على مستوى الشركات، بفضل ذوقي الرائع الذي أتميّز به. حتى لا أجرح أحاسيسي أفضّل الامتناع عن وصف ملابس جاري الأحمق. ومع ذلك، حقيقة أنّ جاري الأحمق هرع لفتح باب المصعد لي، معترفاً بالتسلسل الوظيفي الهرمي، لم تنجح في تحريك مشاعري!

أدركت مباشرة أنّ جاري الأحمق يريد بدء محادثة معي عندما دخلنا المصعد (في إنجلترا يسمّونه رافعة، وفي أمريكا يسمّونه مرقاة، أو العكس، لا أعرف، لا أتذكّر بشكل صحيح؛ في شركتنا، أحياناً أقضي ساعات طويلة في دراسة هذه المشكلة الفلسفية مع مسؤول التخطيط التنفيذي). لكن موضوع حديثه، كما قد يتوقّع المرء، لم يكن عن ذلك؛ كان موضوع رجلٍ أحمق! أخبرني أنّ الحرّ شديد فعلاً، وأنّه إذا لم تمطر تلك الليلة فإنّه لا يعلم ما يمكن أن يحدث في اليوم التالي. لأنّني ظريف جداً جاريته، مستخدما تعبيراً مبتذلاً نوعاً ما، غير لائق في عالم الأعمال. من أجل المرح فحسب، بدلاً من إعطائه وصفًا تفصيليًا لمكيّف الهواء الخاص بي، كما هو منطقي، أخبرته أن لديّ طريقة مضمونة لمعرفة وقت نزول المطر؛ ثمّ صعقته بقولي أنّه لن تسقط قطرة مطر واحدة في تلك الليلة! جاري أحمق جداً، لدرجة أنه صدّق كلامي حرفيا. لكن خجله، باعتباره رجلاً يفتقر إلى الحيوية،

منعه من سؤالي عن الطريقة. من ناحية أخرى، كنّا قد وصلنا بالفعل إلى طابقنا.

منذ ذلك اليوم، صرت استمتع بالوقت مع جاري الأحمق؛ نحن المديرين التنفيذيين بحاجة إلى مثل هذه المتنفّسات كي نريح أذهاننا من عناء الجهد الفكري المكثّف الذي نبذله في عملنا. صرت أختلق كذبة جديدة كلّ يوم؛ جاري، تحديداً لأنّه أحمق، كان سهل الإنخداع تماما!

على سبيل المثال، جعلته يعتقد أنّني ضابط برتبة عقيد، بينما في الحقيقة أنا مدير تنفيذي في واحدة من أعرق الشركات، شركة رائدة في مجالها، متخصّصة في إنتاج وتسويق وبيع الفول السوداني والترمس والفشار وحلوى اللوز. لم أشأ أن أخبره بالحقيقة لأنني شخصٌ متواضع، وأيضا لأنّني ظريف. كذلك، هنالك مشكلة أخرى، جاري الأحمق يبيع الصحف والمجلات في محطة بريميرا جونتا بمترو الأنفاق (أ)، وعليه أن يعمل حتى الساعة الواحدة ظهرًا ليتمكّن من الاحتفاظ بشقته الكبيرة المطلّة على النهر (إطلالة مناسبة لرجل أحمق؛ الشيء الوحيد الذي يوجد في قاع النهر هو الماء!). لهذا، كنت أخشى أن يطلب مني التوسّط لمنحه وظيفة في شركتنا. ولكي أكون صريحاً، فأنا لا أريد أن أعطيها له. أولاً، لأنّ شركتنا، شركة رائدة في مجالها، تخضع لعملية إعادة هيكلة إداريّة؛ ثانياً، لأنّه أحمق. علاوة على ذلك، علاقتي ليست وثيقة مع رئيس شؤون الموظفين. من جانب آخر، لديّ الكثير من المصالح في شركتنا والتي يتوجّب عليّ الإعتناء بها، فليس من قبيل العبث أن أعمل من السابعة

صباحاً حتى التاسعة مساءً لأتمكّن من الإحتفاظ بشقتي الكبيرة المطلّة على الفناء الداخلي للمبنى. لذلك - رجوعاً إلى الحكاية - يستقبلني جاري الأحمق في كلّ مرّة يراني بقوله: «مساء الخير أيّها العقيد! كيف حالك سعادة العقيد؟». (إذا كان الوقت صباحاً يقول «صباح الخير» وفي المساء يقول «مساء الخير»). يعجبني هذا الاحترام المستحقّ عن جدارة الذي يظهره لي جاري الأحمق. في العادة أجيبه ببضع كلمات، ألقيها بنبرة حادّة وجافّة، كما يليق بعقيد! في الأيام الأولى، كان جاري الأحمق مهتماً بالأمور العسكرية، وأثار جنوني بأسئلته. كنت أختلق إجابات فورية بفضل العبقريّة المتأصّلة في داخلي وسرعة التفكير التي مكّنتني من شغل منصب مدير التسويق في شركة رائدة في مجالها. في بادئ الأمر، كنت معنياً بإضفاء نوعٍ من المصداقية على إجاباتي، وحين أدركت أنّ جاري كان أحمق بشكلٍ مستعصي، صرت أخبره أوّل سخافات تخطر ببالي!

جاري الأحمق معجب بي تماماً، ويطمح لأن يكون على علاقة جيّدة معي. ذات يوم أحد، دعاني وزوجتي لتناول الغداء معهم. قبلنا دعوته لأنّ رئيس مجلس الإدارة نسي أن يرسل لنا دعوة لحفل الشواء السنويّ الخامس. أدركت زوجتي من فورها أنّ زوجة جارنا الأحمق حمقاء مثله! في حين اعتادت زوجتي *چيپيتا* أن تحلّ مشكلة الطعام بواسطة النقانق والبيض المسلوق، ممّا يدلّ على روح عمليّة وديناميكية، تجتهد زوجة جارنا الأحمق *ماريا ديل كارمن* - هل سبق أن سمعتم مثل هذا الإسم السخيف! - في طبخ أطباق معقدة على مستوى القدور والقلّايات والمحمّصات،

إرضاءً لزوجها الذي يولي أهميّة كبيرة لمتعة الغداء والعشاء، كونه أحمق وبالتالي لديه ذائقة بدائية، غير راقية!

في تلك المناسبة، أعدّت زوجته المقبّلات ورافيولي منزلي ودجاجاً مشوياً وكعكة كرز. شغفي بالصدق لا يسمح لي بالكذب؛ يجب أن أعترف، إكراماً لزوجة جارنا الأحمق، أنّ تلك الأطباق كانت لذيذة. للأسف، أفسدنا، أنا وزوجتي، الوليمة بإضافة السكّر والقرفة إلى الأطباق الثلاثة الأولى والملح والفلفل إلى الكعكة. غير أنّ نظرات الدهشة والإعجاب التي أبداها جيراننا الحمقى عوّضتنا بسخاء عن الاشمئزاز الذي شعرنا به تجاه الأطباق المليئة بالتوابل! وإمعاناً في حبكة المزحة، شرحت لهم أنّ تلك هي طريقة تناول الطعام في ألمانيا، حيث تلقّيت دورات لوجستية، لأنّها الوسيلة الوحيدة الفعّالة لتلافي الإصابة بأمراض الكبد. نظر إليّ جاري الأحمق وكأنّني مَثَلُه الأعلى وقدوته، ورأت زوجته فيّ فارس أحلامها المنتظر الذي كانت تتوق إليه في صباها. لكن هؤلاء الجيران حمقى جداً، حمقى للغاية، لدرجة أنّهم فشلوا في تقليدنا؛ الأشخاص الحمقى خجولون جداً لدرجة أنّهم يفضّلون أن يصابوا بمرض الكبد. عندما عدنا إلى المنزل، ونحن نتقيأ الطعام، أوشكت أنا و *چيپيتا* أن ننفجر من الضحك على المزحة التي شاكسنا بها جيراننا الحمقى. حتى الطبيب أخذ يضحك بصوت عالٍ وهو يكتب لنا وصفة العلاج!

ذات يوم، بينما أتصفّح كتاباً عن عالم الحيوان العجيب، (لديّ خزانة كتب فخمة من خشب الجوز الإيطالي، على مستوى الإدارة العليا. لديّ أربعة عشر مجموعة من الكتب ذات الأغلفة

المجلّدة؛ أثناء تقديمي الشراب للمديرين التنفيذيين الآخرين أجد أعينهم لا تزال معلّقة على ظهور الكتب)، خطرت لي فكرة تتجاوز بعبقريّتها جميع أفكاري السابقة؛ قمت بتنفيذها فور أن قابلت جاري الأحمق. يمتلك جاري الأحمق حوض سمك به ماء وسراخس وأسماك صغيرة (البرمائيات أكثر جموداً وسخافة من السلاحف).

«هل تحبّ الحيوانات الأليفة؟ لمَاذا لا تشتري لنفسك زاحفاً مجنّحا؟»، سألته.

«زاحف مجنّح؟ ما هو الزاحف المجنّح؟»، سألني جاري الأحمق بدوره.

كنت قد توقعت بالفعل أنّه لا يعرف ما هو الزاحف المجنّح؛ الجيران الحمقى لا يعرفون شيئاً عن العلوم البيطرية! معتمداً على روح الإختلاق المذهلة التي اتمتّع بها، شرحت له صفات التيروداكتيلوس.

«لديّ واحدٌ منها»، قلت مضيفاً.

«هل يمكنني أن أراه سعادة العقيد؟»، الجيران الأغبياء لديهم عادة طلب الأشياء المستحيلة!

«كلّا، مع الأسف»، رفضت طبعا، على اعتبار أنّ العقداء لا يمنحون موافقتهم بسهولة!

«إنه من دواعي سروري أن ألبّي طلبك، ولكنّ الزاحف المجنّح سيموت فوراً من الرعب في حال نظر إليه أيّ شخص. هذه، تحديداً، واحدة من أبرز سماته؛ وهذا ما يجعله باهظ الثمن. أنا احتفظ به في صندوقٍ داكن اللون، ويفضّل أن يكون من خشب

الأبنوس؛ ومن المهمّ جداً تقديم الطعام له من خلال فتحة، دون النظر إليه.»

«وماذا تطعمه أيها العقيد؟»

«الشمندر والضفادع الحية، فهو لا يأكل أيّ شيء آخر. الصندوق هناك، هل تراه؟»

فتحت باب شقتي الكبيرة قليلاً، ومن مسافة بعيدة أطلعت الجار الأحمق على صندوق كنت قد استلمته للتوّ، به عيّنات جديدة من الترمس المصنّع المقاوم للتجعد من انتاج شركتنا، وهي شركة رائدة في مجالها. فتح جاري الأحمق عينيه على اتساعهما؛ بالطبع، لم أعرض عليه الدخول. جاري الأحمق لا يستحق أن يرى شقتي الكبيرة المكيفة، شقة كبيرة على مستوى مسؤولي التسويق. افترقنا بكلمات وداعية، وأنا على علم بأنّ جاري الأحمق لا يزال في جعبته المزيد من الأسئلة. الجيران الحمقى جشعون، لكن الاحترام الذي يغرسه فيه مجرّد تواجدي أمامي عميقٌ جداً، لدرجة أنه لم يجرؤ على مضايقتي!

في اليوم التالي، أراد الحصول على مزيد من التفاصيل، فزوّدته بأكثر الشروح جنوناً التي خطرت ببالي. صدّق جاري الأحمق كل شيء! بعد أسبوع أريته رسمة في كتاب عالم الحيوان العجيب، حيث الزاحف المجنّح جاثم على صخرة، ينظر بصرامة تجاه البحر. بدا جاري الأحمق مسروراً، لم يسبق له أن رأى رسماً للزاحف المجنّح! لأنّه غير مثقف، فهو يفتقر إلى خزانة كتب مصنوعة من خشب الجوز الإيطالي!

«متى حصلت على زاحفك المجنّح، سعادة العقيد؟»

الشخص الديناميكي، القادر على اتّخاذ قرارات سريعة في مجال الإدارة، لا يمكن لسؤال من جار أحمق أن يفاجئه.

«إنّه لديّ منذ ....، انتظر حتى أخبرك بالضبط ... امتلكته منذ عامين ... مؤخراً، ارتفعت قيمة الدولار (تعلمون أنّ قيمة الدولار ترتفع أحيانا). دفعت ثمناً له حوالي أربعة عشر أو خمسة عشر ألف بيزو. لكن، بالتأكيد، الزاحف المجنّح الذي أمتلكه له شهادة نسب.»

استغرق جاري الأحمق في تأمّل عميق، بادٍ على وجهه الأحمق.

«يمكن أيضاً الحصول على واحد منها بستة أو سبعة آلاف بيزو، من دون شهادة نسب»، أضفت، وقد خمّنت ما يدور في ذهنه.

ثمّ أخبرته أنّه مولودٌ في أستراليا، لكن شركة التصدير مقرّها في إنچلترا. الحمقى يحفرون قبورهم بأنفسهم؛ سألني عن عنوان شركة التصدير. من دون ذرّة ندم، في مظهر آخر تجلّت فيه روح الدعابة الرائعة، على ظهر إحدى بطاقاتي المصنوعة من الأوبالين السويدي الفاخر، بطاقات العمل على مستوى أعضاء المجالس الإدارية، كتبت المعلومات التالية:

السيد (تشارلز داروين)

135، شارع (بات)

لندن دبليو 1

إنچلترا

طبيعتي المرحة هي التي تملي عليّ هذه الأحداث العفوية. المديرون التنفيذيون الآخرون، الذين يفتقرون إلى سرعة البديهة،

يجهدون رؤوسهم في التفكير، ورغم ذلك لا يأتون بأفكار تضاهي أفكاري! سأقوم بتحليل سريع وحيادي للجوانب المختلفة لفكرتي المبتكرة. بادئ ذي بدء، كتبت إسم *داروين* باعتباره المرسل إليه، والذي، إذا أسعفتني الذاكرة وهو أمرٌ نادر، كان أوّل من قام بتربية الزواحف المجنّحة؛ إلى جانب ذلك، يظهر لي أنّه قد مات بالفعل. اختلقت اسم الشارع *بات* باللغة الإنجليزية، ومعناه شارع الوطواط؛ وهذا اتقان وبراعة، لأنّ الوطواط حشرة من نفس فصيلة الزواحف المجنّحة. واختلقت رقم المبنى أيضاً، تقريباً دون أدنى تفكير.أمّا لندن فمعروفة، وإنچلترا كذلك (لندن تعدّ واحدة من أكبر المدن في إنچلترا؛ قضيت هناك أربعة أيام، حضرت فيها مؤتمراً تنفيذيّا على مستوى عالمي. بها جماعات الهپّيز، وقيادة المركبات هناك على يسار الطريق).

شكرني جاري الأحمق بإفراط واستفاضة على تلك المعلومات التاريخية المستجدّة وكذلك على العنوان الذي قدّمته له؛ أخبرني أنّه سيراسلهم على الفور. كنت عاجزاً عن كتم ضحكاتي؛ عندما أخبرت *چيپيتا* بذلك استغرقنا في الضحك ساعة كاملة!

أحيانا قد تصدر عن الحمقى ردود أفعالٍ غير متوقّعة، تتعارض مع أبسط مبادئ التعايش الاجتماعي والاحترام المتبادل. من باب الاحتياط فقط، ولكي لا أجبر على إعطائه درساً مجانياً في الجودو، قرّرت السفر مدة شهر لتفقّد فروع شركتنا في قرطبة وميندوزا وتوكومان. لدى عودتي، وبعد أن يهدأ الغضب المحتمل لجاري الأحمق، سيعفيني الوقت المنصرم من معاقبته كما يستحق. في قرطبة، على وجه الخصوص، كان استقبالهم لي حافلاً ومهيبا،

على مستوى الشركة الأم؛ أذكر أنّ سلال المهملات الورقية كانت جديدة تماما. من جهتي، كنت رائعاً؛ مررت على جميع الأقسام، واطّلعت على المستندات، وصرخت مرتين أو ثلاث في وجه زعيم محلّي صغير، وأمرت بتغيير مكان مشاجب المعاطف. وأنا على متن الطائرة عائداً إلى بلدي، ضحكت بمجرّد التفكير في جاري الأحمق!

بعد أربعة أيام من عودتي إلى بوينس آيرس، تشاركت المصعد مع جاري الأحمق.

بحذر، سألته عن أحواله.

أجاب بابتسامة غريبة (غريبة لكن حمقاء، بالطبع): «أنا بخير سعادة العقيد، شكراً لك. لكن اسمح لي أن أوجّه لك عتاباً بسيطا.»

فكّرت على الفور، وفقاً لحجم المصعد الصغير (والذي للمفارقة جعلني وجاري الأحمق على نفس المستوى من سرعة الصعود)، في نوع الضربة الأكثر قوّة بالنسبة لخبير في الجودو لهزيمة ملاكم جلف. في هذه المواقف، من المهمّ جداً مفاجأة الجيران الحمقى.

«العنوان الذي أعطيتني إيّاه كان خاطئاً سعادة العقيد.»

محدقاً بالأرقام الصغيرة التي تتحرّك على لوحة تحكّم المصعد، تظاهرت بدهشةٍ على مستوى مصاعد *أوتيس*.

«أرسلت إلى عنوان 153 أكثر من مرة، فأجابوني إنّ السيّد *داروين* لم يعد يسكن في ذلك المنزل! أحد أبناء إخوتي، من منسوبي الغرفة التجارية، هو من ترجم الرسالة لي.»

وصلنا إلى ردهة طابقنا، الآن أستطيع أن أجعله تحت رحمتي. علاوة على ذلك، في حال ما شعرت بشفقة مفاجئة على جاري الأحمق، فبإمكاني فتح الباب سريعا واحتواء غضبي المبرّر داخل شقّتي الكبيرة المكيفة، وهناك سأكون مستعداً للاتصال بقوّات الأمن.

«يا إلهي!»، هتفت بنبرة على مستوى مسؤول علاقات عامة، «إنّني آسف، ظننت...»

«لا تقلق سعادة العقيد. لقد جعلوني أدور في حلقة مفرغة، لكن في النهاية أرسلوا لي العنوان الصحيح. كان ثمنه باهظاً بعض الشيء، ثلاثين ألف بيزو شاملاً الشحن وكلّ شيء، لكن له شهادة نسب.»

دخل جاري الأحمق شقته الكبيرة؛ كان في استطاعتي رؤية الصندوق الداكن المصنوع من خشب الأبنوس. كم هو أحمق جاري الأحمق! وجود مثل هذا الحيوان الكبير والمزعج في وسط جادة ليبرتادور حقاً أمر غير مقبول! غداً، سأتقدّم بشكوى على مستوى الحاكم. إلى أين سينتهي بنا المطاف إن نحن سمحنا لجيراننا الحمقى أن يتبعوا نزواتهم العبثية؟

في انتظار الحلّ

أنـا واقـع تحـت سـيطرة بعوضـة. بإمكانهـا أن تقتلنـي متـى مـا شعرت بميلٍ إلى ذلك؛ من محاسن الأقدار أنّها لم تسـىء اسـتخدام سـلطتها حتـى الآن! فهـي تمارسـها باعتـدال، مـن دون تعسّـف، بـل ويمكـن القـول بشـكل دسـتوريّ. ومـع ذلـك، يجـب أن يكـون معلومـاً أنّ طاعتـي ليسـت نابعـة مـن اعترافـي بمزاياهـا وفضائلهـا، بـل مـن الخـوف الـذي تغرسـه فـي داخلـي.

متى ما ارتأت ذلك مناسباً، ستقتلني؛ وستمرّ جريمتها، إعدامها لـي، مـن دون عقـاب. حتـى لـو تمكّنـت السلطات القضائيـة مـن أن تثبـت بشـكل لا جـدال فيـه أنّهـا القاتـل، فلـن تقدر علـى معاقبتهـا، ليس فقـط بسبب حقيقـة ثانويـة تتمثّـل فـي عـدم وجـود نـص صريـح فـي قانـون العقوبـات لهـذا النـوع مـن الجرائـم، ولكـن أيضـاً لأنّهـا لـن تسـمح لهـا بذلـك. لحسـن حظـي، لـديّ مـن الأدلـة مـا يكفـي لأفتـرض أنّهـا نبـذت بشـكل نهائـي فكـرة إعدامـي، طالمـا أنّنـي لا أمنحهـا دافعـاً لذلـك!

اتّخـذتْ لهـا مسـكناً علـى الحائـط، بالقـرب مـن الجـزء العلـوي للوحـة زيتيـة تصـوّر مشـهداً يتعـذّر حدوثـه؛ راعيتـان تحمـلان عصاتـي رعـي، إسـبانيتان علـى مـا يبـدو، منهمكتـان فـي الحديـث حـول موضـوع مـا، يحيـط بهمـا قطيـع مـن الخـراف الوديعـة، اسـتقامة ظهـر أحدهـا بـدت متطابقـة مـع خـط الأفـق بشـكل شـنيع! كانـت هنـاك

كلمة ناقصة!!

وفـرة فـي التفاصيل الطبوغرافيـة والألـوان: سـهل أخضـر، جبلان أرجوانيان متوّجان بالبياض، ونهر أزرق يفضـي إلـى بحيـرة رماديـة. لا أعـرف شيئاً عن الفنّ التشكيلي، لكن هـذه الصـورة دائمـاً تبدو لـي مفتقـرة إلـى كلّ القيم الجماليـة. ومـع ذلـك، يمكـن للمـرء أن يقـول إنّ البعوضـة لا تكترث للقيـم الجماليـة، أو بالأحـرى، لأيّ قيـم أخـرى. علـى كلّ حـال، هـي لـم تعـرب عـن موافقتهـا أو رفضهـا!

تفضّـلُ أن تمـلأ وقتهـا بأنشـطة أخـرى: فـي الصبـاح تسـتمتع بالتجـوّل فـي أرجـاء المنـزل، مـن دون هـدف محـدّد علـى الأرجـح. لكـن الحقيقـة هـي أنّهـا، مـن غرفـة الطعـام التـي أنشـأت بهـا مقـراً لمكتبهـا، تذهـب أوّلاً إلـى المطبـخ، حيث يبدو (لكـن بـلا ريـب محـض خيـال مـن عنـدي) أنّهـا تهتـم علـى وجـه الخصـوص ببريـق قـدرٍ صغيـرةٍ لهـا مقبـض أسـود طويـل! أتسـاءل أحيانـا كيـف يمكـن لهـذا الشـيء التافـه كليـاً أن يشدّ انتباههـا، لكـن بعدهـا أعلّـل لنفسـي أنّهـا فـي النهايـة ليسـت إلّا مجـرّد بعوضـة! كان المطبـخ المـكان الـذي تقضـي فيـه معظـم وقتهـا: ثـمّ، فيمـا بعـد، تجـوب الصالـة وغرفـة النـوم وغرفـة الضيـوف، ولا تقـف تحديـداً فـي مـكان معيّـن. أظـنّ أنّ هدفهـا ليـس الإشـراف علـى إدارة المنـزل بقـدر مـا هـو توثيـق سـلطتها علـى كلّ نطاقاتـه!

فـي الظهيـرة، السـاعة الثانيـة عشـرة والنصـف علـى وجـه الدقّـة، تتنـاول غداءهـا. نظامهـا الغذائـي روتينـي، خـالٍ مـن التنـوّع: كلّ يـوم تلتهـم شـريحة مـن نقانـق الـدمّ الإسـبانية، والتـي أقدّمهـا لهـا فـي طبـق خزفـيّ صغيـر (لا تقبـل بـأيّ صنـف آخـر). لا أزال أذكـر اليـوم الـذي رفضـت فيـه شـريحة نقانـق الـدمّ الأرجنتينيـة التـي قدّمتهـا

لها، متزلّفا، لكسب ودّها. كان عليّ حينها أن أهرع إلى الجزّار للحصول على طعامها المفضّل حصريا. بمجرّد أن أضع الطبق على طاولة الطعام لا بدّ لي من المغادرة مباشرة، لأنّها لا ترغب في تواجد أحدٍ حولها أثناء تناولها الطعام! بالرغم من ذلك، أنا أيضاً أتمتّع بقدر من الذكاء، ومن وقت لآخر عندما لا يكون لديّ شيء أكثر إلحاحاً لأفعله أتجسّس عليها من خلال ثقب المفتاح. في الواقع، إنّه فعل سخيف إلى حد ما، فليس ثمّة شيء مميز يستحق المشاهدة! في اللحظة التي تتأكد فيها البعوضة أنّني غادرت غرفة الطعام، تنزل ببطء يتفق مع مكانتها وتهبط على الطبق. ثم تغرز بوقها في الشريحة وترشف الدم بتأنّ وشغف (من المفارقات أنّها تحتقر قطع الجوز التي تميّز نقانق الدم الإسبانية عن الأرجنتينية). في فعلتها تلك، لا يوجد ما تمتاز به عن أيّ بعوضة أخرى في العالم! يستغرق الغداء عادة دقيقتين أو ثلاث دقائق. (في الحقيقة، لقد كذبت عندما قلت إنني أتجسّس عليها فقط عندما لا يكون لديّ شيء أكثر إلحاحاً لأفعله. فالواقع أنّني أتجسس عليها كلّ يوم؛ أن تخترق الحياة الخاصة لمن هم في السلطة لهو أمر مبهر).

بمجرد أن تشبع شهيتها، يتغلّب عليها النعاس والثقل، وعلى ما يبدو، لا تعود قادرة على الرجوع إلى مسكنها بجانب لوحة الخراف. في ذلك الحين، تفضّل أخذ قيلولة على لوح القاعدة، في بقعة معينة حيث الطلاء آخذٌ في التقشّر. تستيقظ حوالي الساعة الخامسة، ولا تقوم بأيّ طلعات أخرى في المنزل؛ فقط تعود إلى اللوحة وتبقى هناك حتى موعد العشاء.

فيما يتعلق بهذه التفاصيل، لقد قدّرت أنّ معرفتي بعاداتها اليومية بشكل دقيق ستفيدني في التخلّص منها. حاولت مرة واحدة فقط، وانتهى الأمر على نحوٍ سيء لدرجة لم أجرؤ معها على المحاولة مرة أخرى.

جرت الأحداث، ولا أخجل من ذكرها، على النحو التالي:

في ذلك اليوم، بدا لي أن غداءها استمرّ لفترة أطول من المعتاد، وأنّها كانت منتفخة بشكلٍ ملحوظ. خلعت فردتي حذائي وتسلّحت بإحداها، مقترباً بهدوءٍ قدر الإمكان، روحي معلّقة بحبل رفيع، حتى أشرفت على اللوح حيث كانت تنام أو تتظاهر بالنوم. أعماني الغرور للحظات؛ اعتقدت بصدق أنّ باستطاعتي سحقها بسهولة على خشب اللوح بحذائي. لكن في ذات اللحظة التي قمت فيها بتوجيه الضربة القاتلة، طارت البعوضة في الهواء بسرعة فائقة ورمت بنفسها على وجهي. انطلقت كالمجنون أجري حول المنزل وأنا أصرخ من الخوف. يا لتلك السرعة التي طارت بها والبراعة التي تماهت بها مع الخلفية المظلمة، يا لمطاردتها الصامتة، وتلك العوائق المتعدّدة التي منعتني من التحرّك بالسرعة التي تطلّبها وضعي المحفوف بالمخاطر. حاولت إدارة المفتاح في القفل لفتح الباب والفرار من منزلي إلى الأبد، لكن تبيّن لي أنّ هذه العملية البسيطة كانت مستحيلة! لم تمنحني البعوضة أيّ وقت، لم يدر المفتاح في القفل، وأصابعي تصلّبت. ركضت وركضت في جميع أنحاء المنزل؛ ركضت غير قادرٍ على الحيلولة بباب مغلق بيني وبينها. ركضت متعثراً بالأثاث، مسقطاً المقاعد، محطماً المزهريات والمرايا، ممزقاً ملابسي، مؤذياً

ركبتـيّ وأقدامـي الحافيـة. ركضـت وركضـت، حتـى سـقطت جاثيـاً وقـد غلبنـي الإرهـاق والرعـب.

«سـامحيني! سـامحيني!»، توسّـلت إليهـا، رافعـاً يـديّ المضمومتين فـي خضـوع المصلّيـن؛ «أقسـم، أقسـم بـكل مـا هـو مقدّس، أقسـم لـك أنّـي لـن أحـاول مـرة أخـرى»!

توقّفـت البعوضـة وأخـذت تحـوم فـي دوائـر صغيـرة، بينمـا كنـت أكـرّر مناشـدتي وتوسّـلات أخـرى، مـن خـلال دموعـي الجاريـة. لا أعلـم مـا إذا كانـت قـد سـمعتني. بـدت وكأنّهـا تفكّـر عمّـا يجـب أن تفعلـه بـي. كان عليهـا أن تتخـذ قـراراً مهمـاً يحتـاج، بـلا شـك، إلـى التدبّـر الـذي يتيحـه الهـدوء فقـط. مـن جهتـي، بـدلاً مـن أن أبقـى صامتـاً ظللـت أئـنّ وأتلـوّع وألهـث، ملابسـي مبللـة بالعـرق؛ ومـع هـذا، بـدأت ألاحـظ أنّ عـروق يـديّ متورّمـة وزرقـاء، تقريبـاً أرجوانيـة، تقـارب السـواد. كانـت البعوضـة تتفكّـر وتتدبّـر وتتأمّـل. مـن الواضـح أنّهـا لـن تتسـرّع فـي اتخـاذ قـرار قـد تـدم عليـه لاحقـا. كانـت تحـوم وتحـوم، فـي كل مـرة ببطـء أكثـر، كمـا لـو أنهـا سـتتوقف، لكـن الأمـر المثيـر للغضـب هـو أنّهـا لـم تتوقـف! اسـتمرّ الحـال لأكثـر مـن نصـف سـاعة، وأنـا، بملامـح كسيفة وعينـان ممتلئتـان بالدمـوع، فـي انتظـار الحكـم والعقوبـة واللـذان سـيصدران بالتزامـن، أرتجـف مـن الـرأس إلـى القـدم، أنظـر مـن النافـذة إلـى أشـكال مبهمـة لعمّـال يعملـون فـي موقـع بنـاء علـى الرصيـف المقابـل، أفكّـر فـي أنّهـم يتمتّعـون بعالـم مـن ضيـاء الشـمس والهـواء النقـي والـدلاء والطـوب؛ عالـمٌ لا مـكانٍ فيـه لبعوضـة شـريرة وقويـة، توشـك أن تبـتّ بشـأن حياتـي أو موتـي. فـي النهايـة، كانـت البعوضـة رحيمـة. بارتيـاح لا يوصـف، شـاهدتها وهـي

تشقّ طريقها ببطء نحو مكانها على اللوح، بلا غطرسة أو تفاخر، ولكن على ثقة الآن من أنّني لن أجرؤ على إيذائها مرة أخرى!

عقب تلك الحادثة، أدركت أنّه عليّ أن أستسلم لمصيري. بصراحة، هي تطلب القليل جداً منّي: فقط شريحتان من نقانق الدم يومياً والطبق الخزفي. ومع ذلك، لديّ هاجسٌ واحد، واحدٌ فقط. يغضبني، يجرحني، يهينني أن يسيطر عليّ مثل هذا المخلوق الصغير، مخلوق لا يكاد يزن بضعة مليغرامات، في حين يبلغ وزني حوالي ثمانين كيلوغراما. في الوقت ذاته، لا أشعر أبداً بالضعف كوني تحت إمرة كائن غير عقلاني، كائن لديه، حرفياً، عقل بعوضة! ربما يعود سبب خضوعي إلى حقيقة أنّني كنت في كثير من الأحيان تابعاً لأشخاص لديهم ذكاء أقل مما تتمتّع به القطط، وحتماً جمالٌ أقل بكثير!

لكن مثلما لديّ هذا الهاجس، لدي أيضاً أملٌ واحد. أعلم أن حياة البعوض لا تدوم سوى بضعة أشهر. هذا هو السبب في أنّي أختلس كل صباح نظرة خاطفة على التقويم، في انتظار اليوم الذي يمكنني فيه وضع علامة على تاريخ موت البعوضة بقلم رصاص أحمر خبأته خصيصاً لذلك. من ناحية أخرى، يصادف غداً مرور عشرين عاماً على اليوم الذي أسّستْ فيه إمبراطوريّتها. بصرف النظر عن تناقض قوانين الطبيعة، فكرة أنّ البعوضة قد تكون خالدة تهوي بي في أعماقٍ سحيقةٍ من الهلاوس.

إذا لم تكن البعوضة خالدة، فهناك احتمالان:

الأوّل هو أنّ البعوضة لم تكن دائماً هي نفسها؛ وأنّه أثناء الليل، بينما أنا نائم، يجري استبدال البعوضة المحتضرة بأخرى أصغر وأقوى. توصّلت إلى هذا الافتراض ذات يومٍ عندما صادفت

جثّة بعوضة أسفل طاولة الطعام. من المؤكّد أنّ هذا ليس برهاناً حاسما؛ لا أملك دليلاً على أنّ تلك البعوضة الميتة هي ذاتها التي تفرض هيمنتها عليّ. ربّما كانت بعوضة من النوع البري الشائع، من تلك التي يمكن التخلّص منها بسهولة بمنشة الذباب والمبيدات الحشرية.

الاحتمال الثاني يستبعد الأول؛ قد تكون البعوضة الجبّارة هي فعلاً تلك الميتة، والتي بجانب صورة الخراف مجرّد بعوضة مغتصبة لا قوّة لها على الإطلاق، ترتكز سلطتها على حقيقة بسيطة تتمثّل في المنصب الذي تشغله ومشابهتها لسالفتها. لكن بما أنّ هذه الحجّة لا تفسّر عشرين عاماً من الهيمنة، يجب أن أفترض أنّ البعوض المغتصب كثير ويمارس عملية الاستبدال بطريقة منظّمة. على العموم، مهما كان الأمر، لن أجرؤ على التأكّد منه؛ فقد يودي ذلك بحياتي!

في هذه الأثناء، تمرّ الأيام والشهور والسنوات، وأنا لا أملك فعل أيّ شيء. مع تقدّمي في العمر، ذاوٍ في قبضة بؤسي، واقعاً طوال الوقت تحت سطوة البعوضة، لا أزال أنتظر الحلّ!

الجوهر والسمة

في الخامس والعشرين من يوليو، بينما كنت منهمكاً في الكتابة، لاحظت ثؤلولاً صغيراً على خنصر يدي اليسرى. في السابع والعشرين من الشهر ذاته، بدا لي أكبر مما سبق بصورة ملحوظة. في الثالث من أغسطس، تمكّنت بواسطة عدسة مكبرة من تمييز شكله؛ كان يشبه فيلاً صغيراً، أصغر فيل في العالم؛ أجل، لكنه فيلٌ مكتمل التفاصيل، معلقٌ بإصبعي من نهاية ذيله الصغير. مع كونه سجين خنصري، إلا أنه يتمتع بحرية الحركة، بيد أن حركته تعتمد كلياً على إرادتي.

بمزيج من مشاعر الفخر والخوف والريبة، عرضته على أصدقائي، لكنهم أبدوا اشمئزازهم، مبررين أن وجود فيلٍ على خنصري ليس بالأمر الجيد، ونصحوني بزيارة طبيب أمراض جلدية. طبعاً سخرت من كلامهم، ولم استشر أحدا؛ بل قطعت علاقتي بهم ونذرت نفسي كلياً لدراسة نمو الفيل.

مع حلول نهاية شهر أغسطس، كان بالفعل هناك فيلاً رمادياً صغيراً جميلاً بطول خنصري، لكنه أكثر سمكا. أخذت ألعب معه طوال اليوم؛ أحياناً، كنت أستمتع بإزعاجه، دغدغته، تعليمه القيام بالشقلبة والقفز فوق العقبات الصغيرة كعلبة ثقاب، مبراة أقلام رصاص، ممحاة.

في ذلك الوقت، بدا لي من المناسب أن أعمّده. لذا، فكرت في العديد من الأسماء السخيفة والتقليدية ظاهرياً والملائمة لفيل، مثل دامبو، جامبو، يامبو. في النهاية، قررت ببساطة أن أسميه (فيل).

أحببت إطعام *فيل*، أنثر فتات الخبز وأوراق الخس وبعض العشب فوق المائدة؛ وعلى الحافة البعيدة أضع قطعة من الشوكولاتة. سيتعيّن على *فيل* أن يكافح للحصول على جائزته، لكن إذا حافظت على ثبات يدي، لن يتمكن مطلقاً من الوصول إليها. بهذه الطريقة تأكدت من أن *فيل* كان مجرد جزءٍ مني، أضعف جزء.

بعد وقت قصير، دعنا نقول عندما صار *فيل* بحجم الجرذ، لم يعد بإمكاني التحكم فيه بسهولة. كان خنصري ضعيفاً جداً بحيث لم يعد قادراً على مواجهة اندفاعه وتهوره. في ذلك الوقت كنت لا أزال تحت تأثير فكرة خاطئة مفادها أن الظاهرة تتعلق بنمو *فيل* فحسب. لكنني أصبت بخيبة أمل عندما أصبح *فيل* بحجم الحمل. يومها؛ أنا أيضاً كنت بحجم الحمل!

في تلك الليلة – وليالٍ أخرى تالية – نمت على بطني ويدي اليسرى بارزة من السرير، بينما نام *فيل* على الأرض بجانبي. بعد ذلك اضطررت إلى النوم بوجهي للأسفل، ورأسي على ردفه وقدميّ على ظهره. اكتشفت بعد ذلك أن جزءاً فقط من أردافه كان كافياً لي. بعد ذلك ذيله. وبعدها طرف ذيله، حيث غدوت مجرد ثؤلول صغير، غير ملحوظ تماما.

آنذاك، خشيت أن أتلاشى، أتوقف عن أن أكون أنا، أغدو

مجـرد ملليمتـر مـن ذيـل *فيـل*. فيمـا بعـد، فقـدت هـذا الخـوف واسـتعدت شـهيتي. تعلمـت أن أطعـم نفسـي بفتـات الخبـز، وحبـوب الطيـور، وأعـواد العشـب، وحشـرات شـبه مجهريـة.

كان هـذا فـي السـابق طبعـاً؛ أمـا الآن، فقـد عـدت مجـدداً لأشـغل مسـاحةً أكبـر قيمـة علـى ذيـل *فيـل*. صحيـح أننـي لا أزال أبـدو عشـوائياً، لكـن بإمكانـي حاليـاً الامسـاك بقطعـة بسـكويت كاملـة، وتأمّـل زوار حديقـة الحيوانـات مـن مـكان منيـعٍ، غيـر مرئـي.

فـي هـذه المرحلـة مـن اللعبـة أنـا متفائـل للغايـة. أعلـم أن *فيـل* قـد بـدأ يتقلـص. بنـاءً علـى ذلـك، أخـذ يملؤنـي شـعورٌ مأمـولٌ بالسـموّ والتفـوق، اسـتلهمه مـن المـارة الهانئيـن، الذيـن يرمـون لنـا قطـع الحلـوى، مؤمنيـن فقـط بالفيـل الجلـيّ أمامهـم، مـن دون أن يشـكّوا فـي أنّـه مجّـرد سـمة مسـتقبلية لجوهـرٍ كامـنٍ، لا يـزال جاثمـاً، قيـد الانتظـار.

السبب دكتور مورو

1.

كلّ شيء في الحياة له وقت؛ وهكذا جاء اليوم الذي قالت *مارينا* فيه: «أودّ أن تقابلَ أهلي».

2.

كان ذلك قبل عقد من الزمان، ظهيرة أحد أيام الصيف الرطبة، بالقرب من محطة أكاسوسو، تحت ظلّ أشجار الكينا المتمايلة بفعل الرياح العبقة برائحة الأمطار البعيدة. لكن، بالرغم من ذلك، لا يمكنني الآن تذكّر وجه *مارينا*!

أعلم بلا شك أنّها كانت جميلة، وحقاً كنت أحبها؛ وأصرّ أنّها كانت جميلة، وهذا أمرٌ لا جدال فيه على الإطلاق. ماذا بعد؟ ماالذي يمكنني تذكّره عن *مارينا*؟ كانت طويلة، سمراء، مرحة، لا مبالية، بريئة، جاهلة، ومحبوبة بلا حدود. هل ستتذكّرني الآن بقدر ما أتذكرها؟ نحن الذين قلنا لبعضنا مرّاتٍ عديدة إنّنا خلقنا لنكون معاً!

3.

كنّا في الخامسة والعشرين من العمر تقريباً في ذلك الوقت، وكلّ شيء يسير على ما يرام بالنسبة لي. حتّى ذلك الحين، لم أعانِ من البؤس؛ ولو فعلت، فهو في حكم الماضي المنسيّ. كانت لدي نظرة متفائلة وساذجة للكون؛ أثق في صدق الحكومات،

وفـي الترقيـات التـي سـأحصل عليهـا خـلال مسـيرتي المهنيـة، وفـي إكمـال دراسـتي، وفـي شـرف الرجـال. لقـد عشـت فـي أفضـل العوالـم الممكنـة.

مـن دون معوقـات، باسـتثناء بعـض الصعوبـات البسـيطة والمتوقّعـة، كانـت جميـع مشـاريعي تسـير علـى المسـار الـذي رسـمته لهـا. أحـد مشـاريعي هـو الـزواج مـن *مارينـا* خـلال فتـرة لا تزيـد عـن السـنة؛ ولـم يكـن لـدي أدنـى سـبب للشـكّ فـي أنني فعـلاً سـأتزوج *مارينا* فـي غضـون عـام.

.4

السـيدة *ستيلا ماريس* كانـت نسـخةً ناضجـةً مـن ابنتهـا *مارينـا* التـي كانـت فـي الواقـع تُدعـى، نشـازاً، *مارينـا أوندينـا*! قـدّرتُ أنّ *مارينـا* سـتبدو مثـل أمّهـا خـلال عقديـن مـن الزمـن، عندمـا يكـون لدينـا بدورنـا إبنـة إيقـاع إسـمها أقلُّ نشـازاً وحدّة. ذلـك هـو الهـدف طويـل المـدى الـذي وضعتـه لنفسـي وأنـا أسـدي التحيـة للسـيدة. مـن المفهـوم طبعـاً أنّ *ستيلا ماريس* كانـت سـيدة أنيقـة فـي الخامسـة والأربعيـن مـن عمرهـا؛ طويلـة، سـمراء، ومرحـة.

مـن ناحيـة أخـرى، تبيّـن أن والـد *مارينـا* هـو أفظـع رجـل قابلتـه علـى الإطـلاق. هيئتـه مائلـة إلـى القصـر، غيـر أنّهـا لـم تكـن مشـكلةً جسـيمة، فـلا يعتقـدنّ أحدٌ أنّـه قـزم؛ هـو فقـط مجردُ شـخصٍ قصير! مـا لـم يكـن مقبـولاً تمامـاً هـو أنّ رأسـه يحتـلُّ أكثـر مـن نصـفٍ طولـه! يـا إلهـي، يـا لـه مـن رأس! أوّل سـمة جذبـت انتباهـي (أو بالأحـرى صدّتنـي) كان لونـه؛ لـون جلدٍ غيـر متلائـم! بـدا قزحيـاً، مزيجـاً مـن الـوردي والأسـود وكلّ الدرجـات بينهمـا، بحساسـية عاليـة للأضـواء،

طرفت معها عيناي عندما جهرني بلمعانه. في الوقت ذاته، لاحظت أن الجلد كان رطباً؛ وعلى الرغم من أنني لم ألمسه، من المشروع أن نفترض أنّه لزج! ليس لديه شعرٌ ولا لحية؛ ومن الواضح أنّه لم يكن لديه شعرٌ مطلقاً، ومعاينتي البسيطة أظهرت أنّه من غير المحتمل أن ينبت الشعر على رأسه! كاد الجزء العلوي أن يصبح مستديراً كالكرة الأرضية، ولكنّه عوضاً عن ذلك بدا مدحوراً كنصف كرة نموذجي! بدءًا من الحدّ المماثل لخط الاستواء (على مستوى أذنيه الخافيتين)، تحوّل الرأس إلى عمودٍ اسطوانيّ مع باقي الجسد، من دون مرورٍ بمرحلة العنق الإنتقالية، واختفى في طيّات رداءٍ أصفرٍ مصنوعٍ من قماش المناشف، غطّاه حتى القدمين، من غير أن يبدي إتساعاً الكتفين! بعبارة أخرى، كان لوالد *مارينا* القطر ذاته من الأعلى إلى الأسفل، كعمودٍ صخري ذي قمّة مستديرة، قام شخص ما بلفّه عند المنتصف بمنشفة صفراء!

على ارتفاع عدة سنتيمترات فوق الشملة، يظهر فم السيد *أوكتافيو*، وهو شقّ متحرّك بلا أسنان، مرنٌ وبوقيّ في ذات الوقت؛ يتقلّص حدّ الإختفاء، ويتّسع بحيث تمتدّ زواياه إلى مؤخّرة العنق، ممّا يعطي انطباعاً بأنّ السيد *أوكتافيو* مذبوح، وأنّ رأسه المستند على قاعدة صغيرة، لم يصل إليها السيّاف المهمل، من المحتمل أن ينهار على الأرض لدى أدنى حركة، حتى لو كانت هبوط ذبابة جائعة عليه! كان يفتقر إلى الأنف والأذنين. حيث موضع أذنيه وأنفه، كان الجلد صقيلاً وناعماً كرأسه الأصلع؛ لا شيء، ولا حتى ندبة أو تجعيدة، ولا أي علامة. أمّا العينان

فضخمتـان، مسـتديرتان، ومحمرّتـان؛ بـلا حواجـب، **لا** رمـوش، **لا** بيـاض، لا بؤبـؤ، لا حركـة ، ولا تعابيـر!

.5

«السيّد *أوكتافيو* يتّبعُ نظامـاً غذائيـاً»، أوضحـت السـيدة *ستيلا ماريس* حيـن رأتنـي أحـدّق فـي الطبـق المخصّـص لزوجهـا.

السـيدة *ستيلا ماريس* و *مارينا* وأنـا أكلنـا مـا يمكـن أن نسـمّيه أطعمـة عاديـة. مـن ناحيـة أخـرى، كان طبـق السـيد *أوكتافيو* مختـاراتٍ مـن الحيـاة البحريـة. انفجـرت رائحـة السـمك النتنـة فـي أنفـي، وأدمعـت عينـيّ. نظـراً لأنّ يـديّ والـد زوجتـي المسـتقبلية كانتـا ملفوفتيـن فـي أكمـام شـملته ذات النهايـات المعقـودة، فقـد بـدا أثنـاء اسـتخدامه الشـوكة والسـكينة كشـخصٍ نسـي أن ينـزع قفازاتـه! واحـداً تلـو الآخـر، التهـم السـيد *أوكتافيو* أطباقـاً مـن الأسـماك النيئـة والرخويـات والقشـريات بسـرعة وشـراهة شـديدة. حسـب تقديـري، فقـد أكل مـا لا يقـل عـن خمسـة كيلوغرامـات مـن تلـك المخلوقـات متعـددة الألـوان؛ أظـنّ أنّنـي ميـزّت فيهـا الحبّـار والروبيـان والمحـار والسـرطان والقواقـع وقنديـل البحـر وبلـح البحـر والبطلينـوس ونجـم البحـر وقنافـذ البحـر والمرجـان والإسـفنج والثعبـان المائـي وأسـماك أخـرى لا يمكـن التعـرف عليهـا!

«أوكتافيـو يتّبـعُ نظامـاً غذائيـا»، أكّـدت السـيدة *ستيلا ماريس* مجـدّداً عنـد نهايـة الوجبـة، ثـمّ أردفـت: «هـلاّ ذهبنـا إلـى غرفـة المعيشـة لتنـاول القهـوة؟»

أفسـحت الطريـق للسـيّد *أوكتافيو* وراقبـت طريقتـه فـي المشـي. كان يتحـرك بشـكل غيـر منتظـم، مـرّة يخطـو خطـوة سـريعة جـداً،

وتارة يخطو ببطء شديد، لكنّها لم تكن مشية عرج! حركته تلك جعلتني أتخيّل سيّارة بأربع عجلات مختلفة: مثلّثة، مستطيلة، دائرية، وبيضاوية. لقد ذكرت سابقاً إنّ شملته الصفراء غطّته بالكامل، باستثناء رأسه؛ طرفها طويلٌ جداً لدرجة أنّه يزحف خلفه كذيل فستان زفاف!

وضعت السيدة صينية القهوة على طاولة منحوتة مثمّنة الأضلاع، تحيط بها أريكتان صغيرتان. جلست أنا و *مارينا* في إحداها. في مواجهتنا على الجانب الآخر من الطاولة جلس السيد *أوكتافيو* وزوجته. عندئذ، تمكّنت من ملاحظة غرابة أخرى لم أنتبه لها أثناء العشاء. عندما يتحدّث السيد *أوكتافيو*، تظهر حركات ردّ فعلٍ إنعكاسية في قسم الأسطوانة المغطّى بالشملة، كما لو كانت هناك أذرعاً غير مرئية تواكب بإيماءاتٍ أهمّ نقاط الحديث! بدت عقد قماش الشملة الصفراء كفقّاعاتٍ عنيفةٍ ومتواترة، ممّا أعطى إنطباعاً أنّ جسد السيد *أوكتافيو* يغلي!

كان ثرثاراً، مع نزعة جامحة لاحتكار الحديث؛ تحدّث وتحدّث وتحدّث. ومع ذلك، لم أكن أستمع حقاً. انشغلت بالتفكير، «هل من المعقول أن يكون هذا الوحش هو والد *مارينا*؛ *مارينا* الرائعة، الجميلة، الملائكية؟» فجأة، سيطر عليّ هاجس أنّ السيدة *ستيلا ماريس* لم تكن مخلصة لزوجها في شبابها، وأنّ *مارينا* هي ثمرة حبٍّ محرّم! على الفور، مدفوعاً بتلك الفكرة، وجدت نفسي أمنح السيدة نظرات تضامنية مشجّعة، لم تلحظها لحسن الحظ، كما لو كنت أُفهمها أنّني كشفت سرها، لكنني لم أستنكره، ولن أتخلّى عنها. على العكس من ذلك، على العكس تماماً، كنت موافقاً

بصدقٍ على مغامرتها؛ أوافق على كل شيء، باستثناء أنّ هذا الوحش الثرثار هو والد *مارينا*!

أعادني إلى الواقع سؤالٌ موجّه إليّ؛ كان الحديث قد انجرف إلى موضوع الأمراض، وبدا أنّ السيدة شعرت بالراحة، حيث أخذت تسهب فيه بحماس.

«أنتِ الآن مثل سمكة في الماء»، قال السيد *أوكتافيو*.

ابتسمت السيدة بفخرٍ وتابعت الحديث. كان لديها في هذا الصدد سيرة تثير الإعجاب: عمليات جراحية، كسور، نوبات قلبية، مرض الكبد، اضطرابات عصبية ... ولأنّني خجول إلى حدّ ما، فقد التزمت الصمت حتى ذلك الحين. لكن *مارينا* حثّتني بنظراتها على المشاركة في الحديث، فتداخلت بتواضعٍ شديد، مستشهداً بنوبات الربو التي ابتليت بها من وقتٍ لآخر.

«بالنسبة للربو»، قال السيد *أوكتافيو* بصوتٍ ملؤه الانفعال، «لا شيء أفضل من البحر؛ البحر أفضل بكثير من الهراء الذي يصفه الأطباء، باستثناء زيت كبد الحوت بالطبع».

«من فضلك *أوكتافيو*، لا تقل ذلك»، وبّخته السيّدة، «تذكّر ذلك الوقت، عندما كنّا في مار ديل پلاتا وأصبت أنا بنزلة بردٍ استمرّت حوالي شهرين».

«كما ترون، تعلق السمكة في السنّارة حين تفتح فمها»، قال السيد *أوكتافيو* بوعظية، «لقد أصبت بنزلة البرد الشهيرة تلك هنا، على بعد بضعة كيلومترات فقط من بوينس آيرس، حينما كنّا ذاهبين إلى مار ديل پلاتا، وليس في مار ديل پلاتا. لا يوجد شيء يضاهي البحر عندما يتعلّق الأمر بصحة المرء».

«بالتأكيد، بالتأكيد،» أسرف الجميع في التأكيد، كلّنا أسرفنا، «المناخ الساحلي، عنصر اليود، الرمال ...»

كرّر السيّد بلهجة سلطوية لا تقبل الجدال: «لا شيء أفضل من البحر؛ ثمانية أيام في البحر وقل بعدها وداعاً للربو! حتى إنّك لن تتذكّر أنّك كنت مصاباً به».

«نعم يا أبي»، أقرّت *مارينا* ، «أنت تحبّ البحر لأنّك من برج الدلو، ولكن هناك أشخاص لا ينسجمون مع ... أنا، على سبيل المثال ، بالرغم من أنني من برج الحوت ...»

«وأنا من برج السرطان، ولا أحب البحر كثيراً أيضا»، تدخّلت السيدة.

«بالنسبة لي، البحر يصيبني بالتوتر»، اعترفت *مارينا* .

«على العكس، الأمر برمّته يتعلق بالتكيّف والتأقلم. بمجرد أن تعتادي على ذلك، سترين كيف يمكن للبحر أن يهدئ أعصابك»، أجاب السيد *أوكتافيو*.

قاطعته السيدة قائلة: «على ذكر الأعصاب، يا لذلك الرعب الذي أصابنا على متن الطائرة، عندما كنّا قادمين من ريو دي جانيرو ...»

«لقد حذّرتك، قلت لك عليك أن تسافري بالقارب. القوارب آمنة ومريحة ورخيصة، ويمكنك التمتّع برائحة البحر ومشاهدة الأسماك. قد تستغرق الطائرات وقتاً أقل، لكن لا مجال هنا للمقارنة»، كان المبدأ التوجيهي لسلوك السيد *أوكتافيو* هي معارضة كلّ ما يقال!

القوّة التي قال بها تلك الكلمات تركتنا في حيرة من أمرنا، وتبع ذلك لحظات من الصمت. لم أشعر أنّني قادر على متابعة

المحادثة. في الواقع لم أشعر أنّني قادر على فعل أي شيء! فمظهر السيد *أوكتافيو* الوحشي - وإن خفّف من حدة تأثيره بعض التعاطف التناقضي المنبثق عن آرائه الإلزامية - وصوته المتذبذب ورائحة نظامه الغذائي البحري شكّلت حججاً قويّة تدفعني إلى الانسحاب. شعرت بالعرق ينحدر على جبيني، وأحكمت ياقة قميصي قبضتها على عنقي. بدأت ساقاي تهتزّان بشكل لا يمكن السيطرة عليه. كنت مرتبكاً تماماً، أو بالأحرى مريضاً، وأردت فقط العودة إلى المنزل. أحاسيس مضطربة نابعة من معدتي جعلتني أتأرجح بين التقيؤ والإسهال العصبي.

لكن لم يكن ممكناً إيقاف ذلك الثلاثي المهذار. لم يبد على *مارينا* ووالدتها أيّ ملامح انزعاج، على الرغم من أنّ السيد *أوكتافيو* دحض وفنّد آراءهما بشكلٍ غير قابل للاستئناف. كان من الواضح أنّ تلك هي طريقتهم المعتادة في الحديث: بوقارٍ وثقة، يقوّض السيد *أوكتافيو* كلّ أقوال زوجته وابنته، وهما تقبلان بذلك الوضع على أنّه أمر طبيعي!

مرّة أخرى أدركت أن رأيي مطلوب، حين دار الحوار حول أفضل مكان نذهب إليه أنا و *مارينا* لقضاء شهر العسل. بوهن، اقترحت *مارينا* الريف وتلال قرطبة والمقاطعات الشمالية في آن واحد؛ غير أن والدها تمسّك برأيه لصالح مدينة مار ديل پلاتا بإصرار.

«إنها صحيّة أكثر. هناك البحر والملح واليود والرمل والأصداف، لا شيء أفضل من البحر»، قال السيّد، داعماً اقتراحه.

أوشكت على فقدان الوعي! اعتقدت أنّني سمعت *مارينا* تجادل لصالح مكانٍ هادئ بعيداً عن السيّاح.

«هل تريدان مكاناً هادئاً؟»، قال والدها الذي بدا أن لا شيء يمكن أن يهزمه، «لديكما سان كليمنتي، وسانتا كلارا ديل مار، وسانتا تيريسيتا. هناك الكثير من الأماكن الهادئة على ساحل المحيط الأطلسي!»

بجهدٌ كبير، نهضت معلناً بهدوء أنّ الوقت قد حان للذهاب.

«في هذا الوقت المبكر؟» سألني وهو ينظر إلى ساعته، «لم ينتصف الليل بعد، بقيت ثماني دقائق!»

نبرة اللّوم المصاحبة لكلماته ألقت بي على الأريكة من جديد؛ يا لها من شخصيّة قويّة تلك التي يمتلكها هذا الرجل المخيف!

بفرحٍ شاحب، راودني الأمل في أنّ زجاجة الويسكي التي وصلت للتوّ في أحضان السيدة *ستيلا ماريس* ستنعشني وتحييني من جديد. في جرعة واحدة أفرغت كأسي!

«عندما كنت صغيراً، كنّا نذهب إلى حانات الواجهة البحرية في باهيا بلانكا للرقص»، قال السيد *أوكتافيو*.

تشتّت ذهني لوهلة، محاولاً تخيّله وهو يرقص!

«احياناً، كنّا نرقص طوال الليل حتى مطلع الشمس؛ لكن شباب هذه الأيام، لا تكاد تحلّ الساعة الثامنة مساءً حتى تراهم في أسرّتهم المريحة، مع بطانياتهم الصغيرة وكمّادات الماء الدافئ، ... ههههه! كما لو أنهم أطفالٌ في الروضة!»

شابت نبرة هجوم شخصي واضحة حديثه الذي ازداد سوءاً من خلال هذه السلسلة الأخيرة من الإهانات الانتقاصية. نهضت

على قدميّ مصمماً على الإنسحاب بقوّة إذا لزم الأمر. لحسن الحظ، لم يكن من الضروري اللجوء إلى العنف، فقد عاد إلى أسلوبه الودود. بمزاجٍ رائقٍ لشخصٍ يستعدُّ لاختتام يوم مثالي، مدّ السيد *أوكتافيو* كمّ شملته الصفراء المعقود إليّ، قائلاً: «حسناً»، ثمّ أخذ يفرك كفّيه معاً داخل أكمامه، «الآن سآوي إلى الفراش بصحبة كتاب جيّد».

أومأت برأسي موافقا؛ كنت أرغب بشدّة في مغادرة ذلك المنزل، فلو بقيت فيه ثانية أخرى، أظنّ أنني كنت سأفقد الوعي!

«سوف أمشي معك إلى الرصيف»، بادرت *مارينا*.

.6

مشينا عبر حديقتهم الأمامية، عانقتني رائحة أشجار الصنوبر كنعمة؛ جذبت أنفاساً عميقة، سامحاً للهواء النقيّ بتبديد رائحة الأسماك الكريهة. شعرت بالانتعاش، واختفت فجأة الأحاسيس المزعجة في معدتي.

«أرأيت كم هو بائسٌ أبي؟» قالت *مارينا*.

«نعم»، أجبت بشكلٍ غامض، فلم أعرف ماذا بإمكاني أن أضيف!

واصلت *مارينا* حديثها، وهي تضع ذراعها حول خصري، كمن يوشك أن يبوح بسر: «إنّه الآن أفضل بكثير. إلى ما قبل عام، لم نكن قادرين على إخراجه من المسبح، حيث يقضي فيه ليله ونهاره. الآن، على الأقلّ، يتناول الطعام على الطاولة وينام في السرير؛ إنه تقدّمٌ فعليّ، أليس كذلك؟»

من بين الأشياء الكثيرة التي ذكرتها، شدّني شيء واحدٌ، أقلّها أهمية: «هل لديكم حمام سباحة في المنزل؟»

«بالطبع، ألم أخبرك من قبل؟ إنّه في الفناء الخلفي. لا يمكنني أن أريكه الآن، فأبي يستخدمه؛ كلّ ليلة يمارس السباحة قبل الذهاب إلى الفراش، فهكذا يهضم طعامه بشكل أفضل».

طرحتُ عليها سؤالاً غبياً: «ألا يسبّب ذلك عسر هضم؟»

«أوه، بالعكس؛ فهو بحاجة إلى الماء المالح. صحيح أنّه يصبح عدوانياً جداً في الماء، ولا يتعرّف على أيّ شخص، ولا حتى نحن، لكن حالما يعود إلى الأرض، حسناً، لقد رأيت كم هو لطيفٌ وودود».

مرتبكاً، نظرت إلى ساعتي؛ جاهلاً بما يجب علي فعله؛ *مارينا* تنتظر منّي أن آخذ زمام المبادرة.

«ماذا عن الجيران؟ ألا يشتكون؟»، سألت.

«وممّ يتذمّرون؟ ليس ثمّة ضوضاء، وليس هناك من هو أكثر هدوءاً من أبي؛ فهو لا يقفز في المسبح، ولكن يذهب إلى حافته، ويسمح لنفسه بالانزلاق هكذا، ششش».

انزلقت يدها برفقٍ على وجهي؛ بفزع، قفزت إلى الخلف! بدورها، حاولت أن تخفّف عنّي بقصة مضحكة:

«ذات ليلة، حين كان أبي شبه مغمورٍ في الماء بالقرب من حافة المسبح، جاء كلب جارنا الخلفي من خلال السياج النباتي وأخذ يتشمّم في الأرجاء حول المسبح، واقترب منه. على حين غرّة، أخرج أبي ذراعيه من الماء و ...!»

وبابتسامة مرحة، تظاهرت *مارينا* بأنّها تخنقني. لم تلمسني أبدا، فقط تحرّكت إلى الأمام، كأنّها تريد الوصول إليّ بذراعيها

الممدودتين نحوي. في ذلك المشهد، بدا وكأنّما اكتسبت يداها للتوّ قوّة ومرونة فريدة. إذا كنت قد قفزت إلى الخلف من قبل، فقد طرت الآن ثلاثة أمتار بعيدا! أخذت *مارينا* تضحك، مستمتعة بردّة فعلي المفرطة؛ تضحك وتضحك وتضحك، حتى بدا لي فمها ممتداً إلى مؤخرة رقبتها، وأصبح رأسها مستديراً وضخماً، واختفى أنفها وأذناها، وفقدت شعرها الداكن الرائع، وتحوّل لون بشرتها إلى مزيجٍ من الوردي والأسود ... اتكأت على جذع شجرة كي لا أنهار.

«حسناً، ما الأمر؟»، هزّت *مارينا* ذراعي؛ عندها، عاد إليّ صفاء ذهني واستعدت توازني.

هاهي ذي *مارينا* ذاتها، الرائعة كعادتها؛ طويلة، سمراء، مرحة، لا مبالية، بريئة، جاهلة، ومحبوبة بلا حدود.

«لا شيء»، قلت وأنا أجاهد لألتقط أنفاسي، «أنا فقط أشعر أنني لست على ما يرام».

قالت، لتخفّف عنّي أكثر وتبهجني: «لماذا لا تأتي للسباحة صباح الغدْ؟ إنّه يوم الأحد كما تعلم. ما عليك إلّا أن تحضر ملابس السباحة، هذا كلّ شيء».

وعدتها بالمجيء حوالي العاشرة صباحاً؛ ودّعتها كالعادة بقبلة.

«أراكِ غداً»، قلت لها.

.7

لكنني لم أعد.

بصفاءٍ ذهنيٍ مباغت، وقبل أن يصل القطار إلى محطة لا لوسيلا حيث منزلي، أدركت كلّ ما يتوجّب عليّ فعله. في

الأسبوعين التاليين، دخلت في دوّامة من النشاط المحموم لترتيب شؤوني وإنهاء معظم أعمالي غير المكتملة. تجنّبت الردّ على الهاتف، وغيّرتُ عنواني وبدّلت عملي. كما ورد في تقارير الشرطة، توقّفت عن الظهور في الأماكن التي كنت أعتادها.

بعد فترة، تمكّنت من الاستقرار بشكل دائم في سانتا روزا بمقاطعة لا بامبا، حيث تتمتع المدينة بمناخ جاف للغاية، وتقع على مسافة متساوية من المحيطين الأطلسي والهادئ.

مخاوف غير مبررة

أنا لست شخصاً اجتماعياً إلى حد ما، وغالباً ما أنسى أمر أصدقائي. كان يوماً شديد الحر من شهر يناير 1979، بعد قرابة عامين من آخر تواصل بيننا، عندما ذهبت لزيارة صديقٍ يعاني من مخاوف غير مبررة. إسمه غير ذي أهمية، لكن لنفترض، مثلاً، أن اسمه *إنريكي فياني*.

في أحد أيام السبت من شهر مارس عام 1977، تغير مسار حياته بشكل غريب.

بغتة، أثناء جلوسه في غرفة معيشة منزله بالقرب من باب الشرفة، على ما يبدو، رأى *إنريكي* عنكبوتاً ضخماً، على حد قوله، على فردة حذائه اليمنى. وبينما ذهنه منشغل بالتفكير في أنها أكبر عنكبوت رآها في حياته، تركت الحشرة مكانها على حذائه، واندفعت دون مقدمات إلى الأعلى بين ساقه والبنطال.

تصلّب *إنريكي فياني* في مكانه، أو كما قال. لم يسبق أن حدث له شيءٌ بغيض كهذا. في تلك اللحظة، تذكّر مبدأين قرأهما في مكان ما. الأول هو أنّ جميع العناكب دون استثناء، حتى الصغيرة منها، تحمل السم مع إمكانية حقنه. والثاني أنّ العناكب لا تلدغ إلا عندما تشعر بالاضطراب أو في مواجهة هجوم. كان جلياً أنّ هذه العنكبوت الضخمة لا بد أن لديها الكثير من السم القادر على التسبب بضرر بالغ. لذلك، ظنّ *إنريكي* أن التصرف الاكثر

عقلانية هو البقاء ساكناً، فربما حقنته الحشرة بجرعة محتومة من السم القاتل إن ندّت منه أدنى رجفة.

ظل جامداً مكانه خمس أو ست ساعات، يحدوه أمل وجيه في أن تغادر العنكبوت البقعة التي احتلتها في قصبة ساقه اليمنى في آخر الأمر؛ فمن الطبيعي أن العنكبوت لا يمكن أن تبقى طويلاً في مكان لا تحصل فيه على أي طعام.

عندما توصّل إلى هذا القدر من التوقع المتّسم بالتفاؤل، شعر أن الزائر البغيض بدأ فعلاً في التحرّك. كانت عنكبوتاً منتفخةً وثقيلةً لدرجة أنّ *إنريكي* استطاع أن يستشفّ - ويعدّ أيضاً - مرور أرجلها الثمانية المشعرة واللزجة بعض الشيء على بشرة ساقه المشوكّة. لكن لسوء الحظ لم تغادر العنكبوت؛ بل على العكس بدأت في نسج بيتها، برأسها الصدري الدافئ والنابض وبطنها، في التجويف الصغير الذي نملكه جميعاً خلف ركبنا.

وصلنا الآن إلى نهاية الجزء الأول، وهو حقاً الجزء الجوهري في هذه القصة. فيما بعد، ظهرت بعض الاختلافات غير المهمة؛ كانت الحقيقة الأساس هي أن *إنريكي* ، يدفعه الخوف من التعرض للّدغ، أصرّ على البقاء ساكناً طالما دعت الحاجة لذلك، على الرغم من مناشدات زوجته وابنتيه للتخلي عن هذه الخطة. هكذا، وصل الجميع إلى طريق مسدود، حيث لم يكن هناك أي إمكانية للتقدم.

حينها شرّفتني *چابرييلا*، زوجته، باستدعائي لمعرفة إن كان في استطاعتي حلّ المشكلة. كان ذلك حوالي الساعة الثانية بعد الظهر؛ أزعجني الأمر قليلاً حيث اضطررت إلى التخلي عن

قيلولتي الأسبوعية الوحيدة، ولعنت في سرّي الأشخاص الذين لا يستطيعون إدارة شؤونهم الخاصة. بمجرد أن وصلت إلى منزل *إنريكي فياني*، واجهني مشهدٌ مثيرٌ للشفقة: كان صديقي يقف ساكناً، وإن لم يكن في وضع صارم جداً، كأنه في استراحة خلال تمرين عسكري؛ بينما انخرطت *چابرييلا* والفتاتان في البكاء.

تمكنت من الاحتفاظ بهدوئي وحاولت تهدئة النساء الثلاث كذلك. ثم أخبرت *إنريكي* أنه في حال وافق على خطتي، سأتمكن من التغلب على العنكبوت الغازي في لمح البصر. فاتحاً فمه قليلاً حتى لا يرسل أدنى ارتعاش عبر عضلة ساقه، تساءل *إنريكي*:

«عن أي خطة تتحدث؟»

أخذت أشرح له التفاصيل: سأحدث شقاً رأسياً من الأسفل إلى الأعلى في رجل البنطال بواسطة شفرة حلاقة حتى تظهر العنكبوت، من دون أن ألمسها. وبمجرد أن يتم ذلك، سيكون من السهل علي أن أطرحها أرضاً بضربة واحدة بجريدة ملفوفة، ومن ثم أقتلها أو أمسك بها.

«لا، لا»، تمتم *إنريكي* محاولاً كبح جماح يأسه. «سيهتز قماش البنطال وستلدغني العنكبوت. كلا.. كلا، هذه فكرة عديمة الفائدة».

أنا لا أستطيع تحمّل الأشخاص العنيدين. بوسعي أن أؤكد بلا فخر أن خطتي كانت مثالية، لكن ذلك الرجل البائس الذي جعلني أتنازل عن قيلولتي نال ترف رفضها من دون سبب جدّي؛ والأدهى أنه فعل ذلك بترفّع واستخفاف.

«على هذه الحال أنا لا أعرف ماذا سنفعل، بحق السماء»، قالت *چابرييلا* بيأس. «هذه الليلة، سنحتفل بعيد ميلاد *پاتريشيا* الخامس عشر...»

«ألف مبروك»، قلتها، وقبّلت فتاة عيد الميلاد.

«... ولا يمكننا السماح للضيوف برؤية إنريكي واقفاً هكذا كتمثال»، تابعت *چابرييلا*.

«علاوة على ذلك، ماذا سيقول *اليخاندرو*!»

«من هو *اليخاندرو*؟»، سألت.

«إنه صديقي»، أجابت *پاتريشيا*، كما توقعت.

«لدي فكرة!»، هتفت الأخت الصغرى *كلوديا*: «بإمكاننا مهاتفة *دون نيكولا* و»...

عليّ أن أبادر بالقول إن خطة *كلوديا* لم تبهرني، وبالتالي لم أتحمل مسؤولية تبنّيها أو تنفيذها؛ بل إنني عارضتها بشدة. ومع ذلك، وافق الجميع عليها بحرارة، وأظهر *إنريكي* حماساً أكثر من أي شخص آخر.

على إثر ذلك، أتى *دون نيكولا* وعلى الفور شرع في العمل، كونه رجل بخيلُ القول كريمُ الفعل. سرعان ما أعدّ خلطة الاسمنت، وشيّد عموداً رفيعاً وطويلاً من الطوب حول *إنريكي*. ضِيق المقصورة، ليس عيباً على الاطلاق، سيتيح *لإنريكي* النوم منتصباً دون خوف من السقوط وفقدان وضعية الوقوف المستقيم. بعد ذلك، قام *دون نيكولا* بتمليط البناء بعناية، ثم دهنه باللون الاخضر الطحلبي لينسجم مع لون السجاد والكراسي.

رغم ذلك، حاولت *چابرييلا*، التي لم تكن راضية عن التأثير العام لتلك المِسلّة الصغيرة في غرفة المعيشة، وضع إناء من الزهور فوقها ومصباح زينة أيضا. «هذه الخردة ستفي بالغرض في الوقت الحالي. يوم الاثنين سأشتري أشياء أكثر ملائمة»، قالت بنبرة شك.

حتى لا يشعر *إنريكي* بالوحدة، فكّرتُ في البقاء لحضور حفلة عيد ميلاد *باتريشيا*، لكن فكرة الاستماع إلى الموسيقى التي يغرم بها الشباب أصابتني بالذعر. على أي حال، حرص *دون نيكولا* على عمل نافذة صغيرة مستطيلة أمام عينيّ *إنريكي* كي تشتت انتباهه عن طريق التفكير والتأمّل في بعض أوجه الخلل في اللوحات الجدارية. حالما تيقنتُ من أن كل شيء أصبح طبيعياً، ودّعت عائلة *ڤياني* و *دون نيكولا* وعدت إلى المنزل.

في بوينس آيرس في تلك السنين، كنّا جميعاً غارقين في الواجبات والالتزامات؛ والحقيقة أنني نسيت كل شيء عن *إنريكي ڤياني*. أخيراً، قبل أسبوعين تمكنت من الحصول على القليل من وقت الفراغ، فذهبت لزيارته.

وجدت أنه لا يزال يعيش داخل المِسلّة الصغيرة؛ لكن الجديد في الأمر هو التفاف جدائل نبات متسلق بديع ذو أزهار جرسية زرقاء حولها. أبعدت الغطاء النباتي الكثيف جانباً، ما مكّنّي من رؤية وجهٍ شاحبٍ جداً لدرجة أنه كان شفافاً تقريباً من خلال النافذة الصغيرة. أخبرتني *چابرييلا* وقد توقعت السؤال الذي كان على طرف لساني، إنّ الطبيعة، من خلال نوع من التكيّف الماكر مع الظروف الجديدة، أعفت *إنريكي* من جميع احتياجاته الجسدية.

لم أشأ أن أغادر من دون توجيه نداء أخير للعقل؛ طلبت من *إنريكي* أن يحكّم المنطق. بعد اثنين وعشرين شهراً من الحبس داخل المِسلّة، فلا شك أن العنكبوت الشهيرة قد ماتت. وبالتالي يمكننا هدم بناء *دون نيكولا* و...

فقد *إنريكي* قدرته على الكلام، أو في أحسن الاحوال لم يعد من الممكن سماع صوته؛ اكتفى برفض كلامي بنظراتٍ يائسة من عينيه.

انسحبت متعباً، وربما حزيناً بعض الشيء.

بشكلٍ عام، أنا لا أفكر في *إنريكي ڤياني*. لكن في الآونة الأخيرة تذكّرت موقفه مرتين أو ثلاث مرات، فاشتعل صدري بلهبٍ ثائر؛ آه، لو لم تكن لتلك المخاوف غير المبررة هذه السيطرة القوية، فسترون كيف كنت سآخذ معولاً وأهدم به هيكل *دون نيكولا* السخيف؛ سترون كيف، في مواجهة بلاغة الحقائق التي تتحدث بصوت أعلى من الكلمات، سيأول الأمر إلى اقتناع *إنريكي* بأنّ مخاوفه لا أساس لها من الصحة.

ولكن، بعد هذه الاشتعالات يفوز احترامي للآخر في كل مرة، وأدرك أني لا أملك الحق في التدخل في حياة الآخرين وحرمان *إنريكي ڤياني* من ميزة يقدّرها كثيرا.

حكاية تنويرية

كان هناك متسولٌ صادقٌ وأمينٌ جداً؛ طرق ذات يوم أبواب قصرٍ فخم، مهيب. خرج كبير الخدم، وقال: «كيف لي أن أخدمكم أيها الرجلُ الطيب؟»

«شيئاً من الصدقة، حباً في الله»، أجاب المتسوّل.

«سأستشير سيّدة المنزل».

تشاور كبير الخدم مع سيّدة المنزل، وكانت بخيلة للغاية، فقالت: « *جيريمايا*، أعط ذلك الرجل الطيب رغيفاً من الخبز، واحداً فقط؛ من الخبز البائت، إن أمكن».

إرضاءاً لمخدومته التي كان يعشقها سراً، إلتمس *جيريمايا* رغيف خبزٍ قديم، يابسٍ كالحجر، وسلّمه للمتسوّل.

«هاك، أيها الرجل الطيب»، خاطبه الآن بكلمات خلت من صيغة جمع الإحترام.

«جزاك الله خيرا»، ردّ المتسوّل.

أغلق *جيريمايا* الباب البلّوطي الضخم، ومضى المتسوّل، متأبطاً رغيف الخبز. وصل إلى الباحة الخالية حيث يقضي أيامه ولياليه، جلس تحت ظل شجرة، وشرع في أكل رغيف الخبز. بينما كان يدير لقمة بين شدقيه، فوجىء بشيءٍ صلب، وشعر بأحد أضراسه ينهار. كانت دهشته عظيمة عندما أخرج من فمه، مع شظايا ضرسه، خاتماً رائعاً من الذهب واللؤلؤ والألماس!

«يا له من حظ، سأبيعه فيوفّر لي المال لفترة طويلة»، قال مخاطباً ذاته. لكن سرعان ما غلبت عليه أمانته؛ فأضاف: «كلّا، سأبحث عن صاحبه وأعيده له».

كان الحرفان (.J. X) منقوشان داخل الخاتم، دلالة على الأحرف الأولى من إسم صاحبه. لم يكن المتسوّل غبياً ولا كسولاً، ذهب من فوره إلى أقرب متجر وطلب دفتر الهاتف. وجد أن البلدة بأكملها لا يوجد بها إلا عائلة واحدة فقط يبدأ لقبها بـ حرف (X)؛ عائلة *إكسوفينا*.

ملؤه السعادة الغامرة بقدرته على وضع أمانته قيد التنفيذ، انطلق إلى منزل عائلة *إكسوفينا*؛ ذهل من فرط الدهشة حينما رأى أنّه نفس المنزل الذي حصل منه على رغيف الخبز الذي حوى الخاتم!

طرق الباب، خرج له *جيريمايا* وسأله: «كيف لي أن أخدمكم أيها الرجل الطيب؟»

«لقد وجدت هذا الخاتم داخل رغيف الخبز الذي جدت عليّ به من طيبتك منذ فترة قصيرة»، أجاب المتسوّل.

تناول *جيريمايا* الخاتم، وقال: «سأستشير السيّدة في الأمر».

ما إن رأت السيّدة الخاتم حتى تهلّلت بالفرح، وأخذت تغنّي بمرح، وتصيح: «كم أنا محظوظة! ها هو ذا الخاتم الذي فقدته الأسبوع الماضي بينما كنت أعدّ عجينة الخبز! هذان الحرفان، (.J. X)، يرمزان إلى إسمي الأول والأخير: *جوسيرمينا إكسوفينا*».

بعد لحظات من التأمل، أضافت: «*جيريمايا*، اذهب وامنح ذلك الرجل الطيب ما يشاء كمكافأة؛ شريطة ألّا يكون باهظ الثمن».

مـزوّداً بتعليمـات عشـيقته، عـاد *جيريمايا* إلـى البـاب وقـال للمتسوّل، مرتـدّاً إلـى صيغـة المفـرد: «أيهـا الرجـل الطيـب، أخبرنـي عمّـا تريـده كمكافـأةٍ علـى فعلـك الحسـن».

«مجرّد رغيفٍ من الخبز لإشباع جوعي»، أجاب المتسوّل.

إرضـاءً لمخدومتـه التـي لا يـزال واقعـاً فـي حبّهـا، إلتمـس *جيريمايا* رغيـفَ خبـزٍ قديـم، يابـسٍ كالحجـر، وسـلّمه للمتسـوّل.

«هاك أيها الرجل الطيب».

«جزاك الله خير».

أغلـق *جيريمايا* البـاب البلّوطـي الضخـم، ومضـى المتسـوّل، متأبطـاً رغيـف الخبـز. وصـل إلـى الباحـة الخاليـة حيث يقضـي أيامـه ولياليـه، جلـس تحـت ظـل شـجرة، وبـدأ فـي أكـل رغيـف الخبـز. بينمـا كان يلـوك لقمـة، فوجـئ بشـيءٍ صلـب، وشـعر بـأن ضرسـاً آخـر مـن أضراسـه ينهـار. كانـت دهشـته عظيمـة عندمـا أخـرج مـن فمـه، مـع شـظايا ضرسـه المكسـور الثانـي، خاتمـاً رائعـاً مـن الذهـب واللؤلـؤ والألمـاس!

مـرة أخـرى، لاحـظ وجـود الأحـرف الأولـى (J. X.). أعـاد الخاتـم إلـى *جوسـيرمينا إكسـوفينا* مـن جديـد، وكمكافـأة علـى أمانتـه حصـل علـى رغيـفٍ ثالـثٍ مـن الخبـز اليابـس؛ حيـث وجـد فيـه خاتمـاً ثالثـاً وأعـاده مجـدّداً وحصـل بسـببه، كمكافـأة، علـى رغيـفٍ رابـعٍ مـن الخبـز اليابـس، لـم يلبـث أن وجـد فيـه ...

منـذ ذلـك اليـوم السـعيد حتـى يـوم وفاتـه غيـر السـعيد، عـاش المتسـوّل بسـعادة ومـن دون مشـاكل ماليـة؛ كان عليـه فقـط إعـادة الخاتـم الـذي يجـده داخـل رغيـف الخبـز كل يـوم!

دفاعاً عن النفس

كانت العاشرة صباحاً يوم سبت، عندما قام ابني البكر، وهو الشيطان مجسدا، على حين غفلة بخربشة باب المنزل المجاور بسلك معدني. لم يكن العمل كارثياً أو ينذر بالخطر؛ مجرد علامة صغيرة، وأغلب الظن أنه لن يراها إلا من يدقق النظر.

أعترف وكلّي خجل: في البداية، فكرت في التكتّم على الأمر، ومن منّا لم يواجه لحظة ضعف كهذه؟ لكن بعد ذلك بدا لي أن الشيء الصحيح الذي يجب فعله هو الاعتذار للجار والتطوّع بدفع ثمن الأضرار. يقيني بأن التكلفة ستكون منخفضة عزّز من تصميمي على تحرّي الصدق والصراحة.

طرقت باب الجار بخفة؛ ما أعرفه عن جيراننا هو أنهم جدد في المنزل، وأن ثلاثتهم شقر البشرة. عندما تحدثوا، علمت أنهم أجانب، وعندما توسّعوا في الحديث، خمّنت أنهم ألمان أو نمساويون أو سويسريون.

ضحكوا بلطف؛ لم يولوا الخربشة أي أهمية، بل إنّهم تظاهروا ببذل الجهد، مستخدمين عدسة مكبرة، ليتمكنوا من رؤيتها؛ كانت بالفعل غير ذات شأن.

رفضوا اعتذاري ببشاشة وحزم، قائلين إن كلّ الأطفال بطبعهم مشاغبون. باختصار، لم يعترفوا بمسؤوليتي تجاه ما حدث، ورفضوا عرضي بدفع تكاليف الإصلاح.

توادعنا، وسط ضحكاتنا العالية، وتصافحنا بقوة وحرارة.

في المنزل، بلهفة، سألتني زوجتي التي كانت تراقبنا عبر العين السحرية للباب: «هل سيكون الطلاء مكلفاً؟»

«إنهم لا يريدون ولا حتى قرشاً واحدا»، طمأنتها.

«هذا حسن جداً»، ردّت، وهي تحكم قبضتها على محفظتها.

لم أكد ألتفت ورائي، حتى رأيت مظروفاً صغيراً أبيضَ اللون بجانب الباب، بداخله بطاقة مطبوع عليها إسمان بأحرف صغيرة: *چييرمو خوفر* و *ريكاردا كورنفيلد دي خوفر*؛ وبخط يد صغير أزرق اللون، أضيفت العبارة التالية: «وابنهما *چييرميتو چوستافو خوفر*، يبذلون التحية للسيد والسيدة *سورينتينو* بعناية فائقة، ويعتذرون عن الوقت العصيب الذي ربما مرّوا به بسبب الشيطنة المزعومة - وهي ليست كذلك أبدا - المنسوبة للصبيّ الصغير *خوان مانويل سورينتينو* حين قام بتزيين بابنا القديم برسم صغير مضحك.»

«بحق السماء!»، صحت متعجباً؛ «يا لهم من أناس مهذّبين؛ لم يغضبوا لما حدث، بل إنهم فوق ذلك اعتذروا لنا!»

رغبة منّي في التجاوب مع لطفهم، أخرجت كتاباً جديداً للأطفال، لم يوزّع بعد في الأسواق، كنت احتفظ به هدية لإبني *خوان مانويل*، وطلبت منه تقديمه إلى الصغير *چييرميتو*.

كان ذلك يوم سعد بالنسبة لي، فقد أطاعني *خوان مانويل* من دون فرض أي شروط مهينة علي؛ وعاد إثر ذلك محملاً بالملايين من كلمات الشكر من الزوجين خوفر وابنهما.

كانت الثانية عشر ظهراً؛ من عادتي في أيام السبت أن أمارس القراءة، لكن من دون جدوى. جلست في مكان مريح، وفتحت الكتاب؛ لم أكمل قراءة كلمتين منه حتى رنّ جرس الباب. في هذا الوقت، عادة أكون أنا الوحيد المتواجد في المنزل ومن واجبي أن افتح. تركت زفرة انزعاج تفرّ من صدري، ثم ذهبت لفتح الباب. كان شاباً له شارب، يرتدي زي جندي، تحجب جسده باقة ضخمة من الورود.

وقّعت على وصل الإستلام، ومنحته بقشيشاً، فمنحني بدوره ما يشبه التحية العسكرية. تمكّنت من عدّ أربع وعشرين وردة؛ قرأت بعدها الكلمات المكتوبة على بطاقة صفراء: «چييرمو خوفر و ريكاردا *كورنفيلد دي* خوفر يحيون السيد والسيدة *سورينتينو* والإبن *مانويل سورينتينو* بكل بلطف، ويشكرونكم على كتاب قصص الأطفال الجميل – غذاء للروح – الذي قدمتموه لإبننا چييرميتو *چوستافو* خوفر.»

محمّلة بالأكياس ومثقلة بالمجهود، وصلت زوجتي في تلك اللحظة من السوق:

«ما أجمل هذه الورود؛ لشدّ ما أحب الزهور! كيف خطر على بالك شرائها، أنت الذي نادراً ما تفكر في شيء كهذا؟»

تحتّم علي أن أعترف بأنّها هدية من الزوجين خوفر. قالت أثناء قيامها بوضع وتنسيق الورود في المزهريات: «يجب أن نعبّر لهم عن تقديرنا لهذا. سوف ندعوهم لتناول الشاي.»

حيث أنه كانت لدي خطط أخرى ليوم السبت، بضعف، غامرت بالسؤال:

«هذا المساء...؟»

«لا تأجّل عمل اليوم إلى الغد.»

كانت الساعة السادسة مساء. تألق الطقم الصيني الفخم ومفرش المائدة الأبيض فوق طاولة غرفة الطعام. قبل ذلك بفترة قصيرة، وطاعة لأوامر زوجتي التي أرادت إضفاء لمسة أوروبية من فيينا، اضطررت للذهاب إلى متجر الحلويات في شارع كابيلدو وشراء بعض السندويشات والمعجنات والحلويات وأشياء أخرى لذيذة. طبعاً كلها من أجود الأنواع، مغلفة ومربوطة بشرائط حمراء وبيضاء، ومثيرة للشهية. عندما مررت بمتجر بيع الأدوات، دفعتني أنانية قاتمة إلى مقارنة مصاريفي الأخيرة مع سعر أكبر برميل من أفضل أنواع الدهانات؛ أصابني ذلك بضيق خفيف.

لم يأت آل خوفر خالو الوفاض؛ فقد زاحمتهم كعكة ضخمة بيضاء، مزخرفة، ومليئة بالكريمة، تكفي لإطعام فوج كامل من الجنود. ذهلت زوجتي من الهدية الباذخة. أنا أيضاً صدمت، لكنني فعلاً بدأت أشعر بعدم الارتياح إلى حد ما. بأحاديثهم التي كانت في أغلبها مزيجاً من الاعتذار والإطراء، فشل آل خوفر في إثارة اهتمامي. من الناحية الأخرى، تمكّن *خوان مانويل* و*چيبرميتو* من إثارة قلقي بلعبهم المكوّن من سباق وضرب وصراخ وتخريب.

في الساعة الثامنة مساءً، ربما كان من الأجدر لهم إنهاء الزيارة؛ لكن زوجتي همست في أذني في المطبخ»:

إنهم لطفاء جدا. يالها من كعكة! يجب أن ندعوهم للبقاء لتناول العشاء.»

«وماذا سنأكل؟ ليس ثمة ما يليق بمائدة عشاء؟ ولماذا نتناول العشاء إذا لم نكن نشعر بالجوع؟.»

«إذا لم يكن لدينا طعام هنا، فسيكون متوفراً في متجر الأطعمة. أمّا بشأن الجوع فمن قال أنّنا يجب أن نأكل؟ المهم هو مشاركتهم الطعام وقضاء وقت ممتع.»

على الرغم من أن الأمر المهم لم يكن الطعام، إلا أنني، وفي حوالي الساعة العاشرة ليلاً، عدت مثقلاً كبغل، أحمل عبوات ضخمة وزكية الرائحة من الأطعمة المعلبة. مرة أخرى، أثبت آل خوفر أنهم ليسوا بالذين يأتون صفر اليدين؛ أحضروا ثلاثين زجاجة من النبيذ الإيطالي وخمسة من الكونياك الفرنسي في صندوق من الحديد والبرونز.

حين صارت الساعة الثانية صباحاً، غرقت في النوم، منهكاً بسبب رحلات جلب الطعام، ومتخماً بالأكل الكثير، ومخموراً بالنبيذ والبراندي، ومُثاراً بمشاعر الصداقة. كان ذلك من حسن الحظ؛ ففي السادسة صباحاً، قرع آل خوفر الجرس، يرتدون ملابس رياضية ونظارات شمسية حاجبة. أخذونا بالسيارة إلى منزلهم الريفي في بلدة إنجينيرو ماشويتز المجاورة.

أي شخص يقول أن تلك البلدة على مرمى حجر من بوينس آيريس سيكون كاذباً. في السيارة، غابت أفكاري في متاهة الحنين إلى رفاقي وجريدتي ووقت راحتي. عيناي تحرقاني إن أبقيتهما مفتوحتين؛ وإن أغلقتهما فحتماً سأنام. من جهتهم، بدا آل خوفر مرتاحين بشكل غامض، حيث تبادلوا الحديث والضحك طوال الطريق.

عاملونا كالملوك في منزلهم الذي كان جميلاً جدا. استمتعنا بحمام شمسي، وسبحنا في المسبح، وأكلنا مشويات لذيذة، حتى إننا أخذنا غفوة تحت شجرة غير عابئين بالنمل حولنا. عندما استيقظت، أدركت من فوري أننا جئنا خاليي الوفاض.

همست زوجتي: «لا تكن فظاً؛ على الأقل اشتر شيئاً لابنهم.»

ذهبت في نزهة حول المدينة مع چييرميتو؛ توقفنا أمام نافذة متجر ألعاب، سألته:

«ماذا تحب أن أشتري لك؟»

«حصان.»

فهمت في البداية أنه يقصد لعبة حصان؛ كم كنت مخطئا! عدت إلى المنزل الريفي على ظهر حصان مفعم بالحيوية، ممسكاً بخصر الصبي، ومن دون سرج أو وسادة لأردافي التي أخذت تؤلمني.

هكذا مضى يوم الأحد.

عندما عدت من العمل في يوم الإثنين، وجدت السيد خوفر يعلّم *خوان مانويل* ركوب الدراجة النارية.

«مرحباً، كيف حالكم؟، ألقى عليّ التحية. «مارأيك، هل يعجبك ما جلبته للصغير؟»

«لكنه أصغر من أن يركب دراجة نارية»، اعترضت بالقول.

«إذا، سأهديك إياها.»

ما كان ينبغي له أن يقول ذلك أبدا؛ عقب تجريده من الهدية، انفجر *خوان مانويل* في نوبة غضب صاخبة.

«يا للمسكين»، قالها السيد خوفر متعاطفاً. «الأولاد هكذا. تعال يا عزيزي، لدي شيء آخر لطيف لك.»

إعتليت الدراجة النارية؛ ولأنني لا أتقن القيادة، بدأت في إصدار ضجيجها بفمي.

«توقف مكانك، وإلا سأقتلك!»، صوّب *خوان مانويل* بندقية الهواء المضغوط نحوي.

قال السيد هوفر ناصحاً: «لا تطلق النار على العيون.»

أحدثت صوت صرير فرامل الدراجة النارية، حينها توقف *خوان مانويل* عن تصويب البندقية علي؛ عاد كلانا إلى المنزل سعيداً جدا.

«تلقّي الهدايا أمر سهل للغاية»، بيّنت زوجتي. «لكن عليك أن تعرف كيف تردّها. لنرى ما أنت فاعلٌ حيال ذلك.»

فهمت الرسالة.

يوم الثلاثاء، اشتريت لهم سيارة مستوردة وبندقية صيد. تعجّب السيد خوفر وسألني لماذا تحمّلت كل تلك التكاليف. بطلقته الأولى، كسر چييرميتو مصباح الشارع!

يوم الأربعاء تلقّينا ثلاث هدايا. حصلت أنا على حافلة سفر دولية كبيرة وفخمة، مزودة بتكييف وحمام وساونا ومطعم وقاعة رقص؛ حصل *خوان مانويل* على مدفع بازوكا فيتنامي الصنع؛ أمّا زوجتي فحظيت بفستان سهرة أبيض فاخر.

«أين سأرتدي هذا الفستان؟»، علّقت زوجتي بخيبة أمل. «في الحافلة مثلا؟ إنها غلطتك كونك لم تعطِ السيدة أي شيء ذا قيمة؛ لهذا صرت أنا أتلقى أشياء أقرب للصدقات.»

كاد الإنفجار الرهيب أن يصيبني بالصمم. لاختبار البازوكا، صوبهّا *خوان مانويل* نحو المنزل الواقع عند الزاوية؛ بطلقة واحدة كان المنزل قد تساوى بالأرض. لحسن الحظ، لم يكن مأهولاً بالسكان منذ مدة طويلة.

غير أن زوجتي واصلت شكواها:

«طبعاً، للرجل المحترم حافلة كبيرة ومجهزة بما يكفي للذهاب إلى البرازيل؛ للفتى الصغير سلاح قوي للدفاع عن نفسه ضد أكلة لحوم البشر في ماتو چروسو. وماذا للخادمة؟ مجرّد فستان حفلة ... آل خوفر هؤلاء، أوروبيون طيبون؛ لكن بخلاء...»

ركبت الحافلة وأدرت المحرك؛ ثم في مكان منعزل قرب النهر توقفت جانباً. هناك، مسترخياً على المقعد الوثير، مستمتعاً بالقليل من الضوء الهادىء الذي وفرته لي الستائر المسحوبة، أسلمت نفسي للتأمل الهادئ.

عندما عرفت بالضبط ماذا أريد أن أفعل، توجّهت إلى مبنى الوزارة لرؤية پيريز. مثل كلّ أرجنتيني، لديّ صديق في وزارة وهذا الصديق يُدعى پيريز. بالرغم من أنني رجل أعمال مقتدر للغاية، لكنني في هذه الحالة كنت بحاجة إلى پيريز للمساعدة بنفوذه.

ونجحت في مسعاي.

أعيش في حي لاس كانيتاس، الذي يسمّى الآن سان بينيتو دي پاليرمو. لمدّ خط سكة حديد من محطة ليساندرو دي لا توري إلى باب منزلي، كان لزاماً على جيش ضخم من المهندسين والفنيين والعمال العمل الصامت والمتواصل والحاذق، يستخدمون

فيه أحدث الآلات العالمية المتخصصة. وبعد مصادرة وهدم كتل المباني الفخمة الأربع التي كانت تمتد على طول شارع ليبرتادور، بين شارعي أوليروس وماتينزو، تُوِّجَ هذا المشروع الشجاع بنجاح باهر. ومن نافلة القول أنّ أصحاب العقارات المنزوعة حصلوا على تعويض عادل وفوري. مع وجود أمثال پيريز في أي وزارة، لا وجود لكلمة مستحيل!

أردت مفاجأة السيد خوفر هذه المرة. عندما خرج إلى الشارع في الثامنة من صباح الخميس، وجد قاطرة ديزل تلتمع باللونين الأحمر والأصفر تجرّ ست عربات. فوق باب القاطرة، هناك لافتة صغيرة كُتب عليها: «أهلاً بك في قطارك، سيد خوفر.»

«قطار!» صاح جاري بفرح. «قطار كامل لي وحدي! إنّ حلم حياتي تحقق الآن! منذ أن كنت طفلاً أردت أن أقود قطارا!»

ومن فرط جنون السعادة، ركب القاطرة من دون حتى أن يشكرني، حيث كان في انتظاره دليل تعليمات بسيط يشرح كيفية قيادتها.

صحت به: «انتظر من فضلك، لا تكن متعجلا؛ انظر ماذا جلبت للفتى الصغير.»

في تلك اللحظة، ظهرت دبابة حربية هائلة، تدمّر بلاط الأرصفة بجنزيرها.

«يا للهول !!» صرخ چييرميتو؛ «لطالما كانت لدي الرغبة في هدم المسلّة!»

«لم أنس السيدة أيضاً»، أضفت من فوري؛ وأعطيته أرقى وأرق معطف من فراء المنك، تلقّيته للتو من فرنسا.

من شدة فرحهم ولهفتهم وتشوقهم، أراد آل خوفر تجربة هداياهم في ذلك الزمان والمكان.

لكنني كنت قد وضعت في كل هدية فخاً صغيرا. كان معطف المنك مطلياً من الداخل بمزيج إخفاء سحري زوّدني به ساحرٌ من الكونغو؛ وبمجرد أن لفّت السيدة *ريكاردا* جسدها بالمعطف. احترقت أولاً ثم تحولت إلى سحابة بيضاء باهتة، لم تلبث أن صعدت إلى السماء.

وفور أن أطلق الصبي أول قذيفة على المسلّة، إنطلق برج الدبابة، مدعوماً بجهاز خاص، نحو الفضاء بالفتى الصغير؛ ثم هبط به بأمان وسلام على أحد أقمار كوكب زحل العشرة!

وعندما بدأ السيد خوفر السير بالقطار، هوى بشكل لا يمكن السيطرة عليه من معبر ذري، حيث انتهى مسار رحلته فجأة، بعد عبور المحيط الأطلسي وشمال غرب أفريقيا وقناة صقلية، في فوهة بركان إتنا الثائر في تلك الأيام!

وهكذا، جاء يوم الجمعة ولم نتلق أي هدايا من آل خوفر. في المساء، أثناء تحضير الطعام، قالت زوجتي:

«نعم، كن لطيفا مع الجيران؛ أنفق عليهم نقودك! قطار، دبابة، معطف من الفرو. وماذا عنهم! لم يبالوا أبداً برد الجميل، ولا حتى مجرّد بطاقة شكر!»

فرانكنشتاين

كان أحد زملاء العمل، ناحل الجسم، صغير الحجم، ودائماً يرتدي الألوان الرمادية. إسمه *پيليچريني*، لكنّه يحب أن يدعى *فرانكنشتاين*. في الواقع، الكثير من أصدقائه يحبّونه، وهم بالفعل يدعونه *فرانكنشتاين*؛ الآخرون الذين هم أقل ودّاً يفضّلون أن ينادونه *پيليچريني*.

هو موظّفٌ مثالي؛ مكتبه أمام مكتبي، وغالباً ما أراه وهو يعمل؛ إنّه عنيد ومثابر ومجتهد. ومع ذلك، أخشى أن مستوى ذكائه أقلّ من ضعيف. وإلّا، كيف يمكن تفسير التوتّر الشديد البادي على ملامحه، كمن تواجهه صعوبات لا يمكن التغلب عليها، لدى التعامل مع أبسط المهام؟ رؤية كيف تختلج يديه على سطح المكتب الزجاجي تاركة هالة مؤقتة من الرطوبة، كيف تغوص أسنانه في قلمه الرصاص، كيف يدحرج عينيه، كيف يتلألأ العرق على جبينه، كيف ينبض وريدٌ في رقبته، خلاصة القول، رؤية كيف يفتقر *فرانكنشتاين* إلى الذكاء بشكل شبه تامّ، ولكن لسوء الحظ ليس كلياً، وبالتالي فهو على دراية بمحدوديته، رؤية هذا القدر الهائل من الشقاء، يجعلني أشعر بالأسف على *فرانكنشتاين*.

لكنني، قبل كل شيء، أشعر بالخوف؛ أتساءل في نفسي: «أيّ نوعٍ من الحقد المظلم يجول في دماغ *فرانكنشتاين* البدائي؟ أي رغباتٍ ضبابية لإنتقامٍ مبهم تثير فيه جانباً لا يتمكن من فهمه بشكلٍ كامل؟»

قبل أيامٍ قلائل، فاجأني *فرانكنشتاين* بينما كنت أراقب معاناته؛ ألقى عليّ نظرة بطيئة وثقيلة. هناك، في أعماق تلك العيون البليدة، وَمَضَ بريقٌ من القسوة، ضاربٌ إلى الحمرة. «يا إلهي»، فكّرت حينها، «لم عساهم ينادونه *فرانكنشتاين*؟»

«قل لي (پيليچريني)، لماذا ينادونك *فرانكنشتاين*؟»

«مجرّد مزاح ودّي»، أجابني بإبتسامة.

مع ذلك، أعتقد أن *فرانكنشتاين* كان يخفي شيئاً عنّي. بعد ظهر أحد أيام السبت، بمحضِ الصدفة، رأيته؛ في شارع فلوريدا، في وضح النهار، كان *فرانكنشتاين* يسير متصلباً دون ثني ركبتيه. بذراعين ممدودتين، في وضعٍ ينشرُ الوعيد من سحنته الشريرة الزائفة حتى أطراف أصابعه، أخذ يهدّد بِخَنْقِ كلّ من يقابله في طريقه. تراجع الناس عنه، متفاجئين أكثر من كونهم خائفين؛ بمجرّد زوال الخطر المفترض، أداروا رؤوسهم تجاه *فرانكنشتاين* بإبتساماتٍ ساخرة. كان ذلك، في الحقيقة، لأنّ مظهره الضئيل لم ينجح في التأثير على أحد!

الآن، بعد ما حدث، هل سيتنبّه *فرانكنشتاين* إلى تلك الإبتسامات الهازئة، تلك الإبتسامات التي تقلّل من شأن سلوكه المهدّد؟ وزيادة على ذلك، هل سيكون لدى هؤلاء الأشخاص المبتسمون أدنى فكرة عن شخصية *فرانكنشتاين* الحقيقية؟ كلّا، بكلّ تأكيد! ما حدث هو أنّهم لم يروا كيف يعاني في مواجهة الصعوبات التي تعترضه في عمله الوظيفي؛ لو رأوه، كما حدث معي مرّاتٍ عديدة، لما تجرّأوا على السخرية منه بتلك الطريقة.

ممّا يزيدُ الأمور سوءا، لا يبدو أنّ زملائي في العمل لاحظوا

شـذوذ تصرفاتـه وغرابـة أطـواره كذلـك! غالبـاً مـا يلقـون النـكات علـى حسـابه، ويضربونـه بلطـف، وعـادة مـا يطلقـون عليـه إسـم *فرانكنشـتاين*؛ بينمـا يكتفـي هـو بالإبتسـام وكأنـه يسـتمتع بالـودّ والصداقـة. «كل شـيء علـى مـا يـرام»، كنـت آنـذاك أقـول لنفسـي.

لكـن أصدقـاء *فرانكنشـتاين* يتحدّثـون بسـرعة كبيـرة، يكثـرون مـن الإضمـار والإيحـاء، يلمّحـون بخبـثٍ إلـى أمـورٍ يعرفهـا الجميـع، ويسـتمتعون بالتوريـة التافهـة والتلاعـب اللفظـي. حينهـا، إذ أتظاهـر بأنّنـي مكبٌّ علـى أوراقـي، أنـا فـي الحقيقـة أرتعـد مـن إسـتهتار هـؤلاء الأشـخاص اللامسـؤول. أتمنّـى لـو أقـول لهـم: «تحدّثـوا ببطء، أكملـوا الجمـل؛ كونـوا صرحـاء فـي كلّ شـيء؛ كُفّـوا عـن المكـر؛ ألا تـرون أنّ *فرانكنشـتاين* لا يفهـم!»

أعلـم أن هـذا التحذيـر، إذا مـا جـرى اتباعـه، مـن شـأنه أن يمنـع وقـوع كارثـة شـاملة ومطلقـة؛ لكنّنـي أمتنـع عـن التدخّـل. حقـاً، مـاذا سـيحدث لـي لـو عـرف *فرانكنشـتاين* أنّنـي علـى علـم بمحدوديتـه الهائلـة؟ قلـت لنفسـي حينئـذ: «إنّ أفضـل شـيء أفعلـه هـو التـزام الصمـت، وعـدم إثـارة حنـق *فرانكنشـتاين* علـى نفسـي فقـط!».

إعادة دمج في المجتمع

قضينا شهر العسل في ربوع مدينة باريلوتشي، عدنا بعدها إلى بوينس آيرس يوم السبت عند الغسق، متلهفين لقضاء ليلتنا الأولى معاً في شقتنا المريحة ذات الغرفتين.

وجدنا قفصاً في غرفة نومنا!

بدا كقفص ببغاء، لكنه أكبر بكثير؛ له قاعدة مستديرة قطرها حوالي 3 أمتار، وقضبان عمودية تلتقي في الأعلى مثل خطوط الطول، مشكّلة قبة مدببة تلامس السقف.

لإفساح مكان للقفص في غرفة نومنا، نُقِلَ سريرنا مع الطاولات الجانبية إلى غرفة الطعام بعد أن جرى تحريك طاولة الطعام بكراسيها الأربعة صوب الحائط. تعرّض الأثاث والأرضيات والجدران للخدش بشكل كبير؛ كما أصبح من الصعب فتح أبواب الخزانات لأنها محجوزة بالسرير.

في القفص، كان هناك رجل شاحب، شعره ضارب إلى الحمرة؛ بدا نظيفاً وأنيقاً للغاية ومن زمن آخر قديم بعض الشيء، يرتدي بذلة سوداء مزدوجة الإزرار بخطوط رمادية، وقميصاً أبيض منشى، وربطة عنق داكنة، وحذاء أسود لامعا. كان ممسكاً على ركبتيه بقبّعة رمادية جديدة ونظيفة وعتيقة الطراز، مثله تماماً. هذه الملابس القديمة، وإن بدت حديثة الصنع، أعطتني انطباعاً غريباً بأنها اكسسوار، أو تمويه، أو إعادة تجسيد لشخصية تراثية.

لاحظنا كل هذا فيما بعد؛ لكن في البداية، صدمنا أنا و *سوزانا*.

قال الرجل بنبرة رتيبة، بعد إن انتظرنا إلى أن هدأنا:

«لم أكن أتوقع وصولك اليوم. وفقاً لمعلوماتي (راجع كتيّبه). كان من المفترض أن تعودا ليلة الغد. البرنامج واضحٌ تماماً: الجمعة الثاني عشر من الشهر، يوم تمهيدي للمتدربين؛ السبت الثالث عشر، التكيّف الجسدي والعقلي؛ الأحد الرابع عشر، وصول المرشدين. واليوم، إن لم أكن مخطئا، فهو يوم السبت الثالث عشر.»

«أنت على حق»، قلت له؛ «لقد عدنا أبكر بيوم، فليس من المستحسن الذهاب إلى العمل بعد بضع ساعات فقط من العودة من السفر.»

«الأمر الأقل استحساناً هو استقبال الضيوف مبكرا. لن يكون السيد *روكي* سعيداً بهذا الخروج عن آداب اللياقة، والذي بالمناسبة سيؤدي حتماً إلى اضطراب خططي لهذه الليلة.»

«السيد *روكي* ؟ صاحب الشركة العقارية؟»

«ومن غيره! إنه هو شخصياً من اتخذ جميع الترتيبات اللازمة والتي لم تكن سريعة أو سهلة. لكن السيد *روكي* يعتقد أنّ على جميع المواطنين أن يكونوا متحمّسين للغاية في ما يخص احترام القوانين، والتأكد من احترام الآخرين لها.»

قرّرت حينها أن أضع الأمور في نصابها الصحيح: «القوانين؟ عن أية قوانين تتحدث؟ السيد *روكي* مجرّد رجل أعمال، منذ متى صارت لديه سلطة فرض القانون؟»

تابع الرجل، وصوته لا يزال رتيباً: «من الواضح أنك شخص لم يخبر الحياة بعد. علاوة على ذلك، لقد منعك حفل زفافك من التعرف على بعض التغييرات التي جرى إدخالها في التشريعات العقارية. على سبيل المثال، أصبح السيد روكي الآن مأموراً قضائياً. أنت أيضاً مأمور قضائي، ولكن ضمن حدود معينة.»

«أنا مأمور قضائي؟»، ندّت مني ضحكة ارتياب مكتومة.

«ليس تماماً؛ بالأحرى، مساعد مأمور قضائي.»

«مساعد للسيد روكي ، وماذا بعد؟»

«ليس من الحكمة أن أستبق القرار الرسمي؛ ومع ذلك - هنا غصّ من صوته - أنا واثق من أنك ستُبقي هذه المعلومات في سرية تامة.»

«ولماذا تضع ثقتك بي؟»

«إن قاعدتي الذهبية يا سيدي هي معرفة كيفية العيش بتوافق مع الآخرين؛ بما أننا سنقضي الكثير من الوقت تحت سقف واحد...»

«الكثير من الوقت تحت سقف واحد؟!»

«هذا صحيح يا سيدي. أنا أكبر منك بما لا يقل عن 30 عاما. لقد أحرزتُ تقدماً ضئيلاً للغاية؛ أنا الآن في أدنى درجات سلم السجن؛ إنني مجرد سجين. في المقابل، أنت رجل حرّ، وقد حصلتَ للتو على أول ترقية في حياتك المهنية على سلم السجن: رتبة مساعد.»

انفجرت *سوزانا* لدى سماع ذلك:

«لم أسمع قط في حياتي كلها مثل هذا الهراء! ببساطة شديدة، المشكلة الأساس هي: بحق الجحيم، ماذا يفعل هذا

الرجل هنا بقفصه المروع في غرفة نومنا؟! زيادة على ذلك، من نقل السرير والطاولات إلى غرفة الطعام، ولماذا، ومن سيدفع ثمن الأضرار التي سببها ناقلو الأثاث؟»

«سيدتي الشابة، لا يمكنني الإشادة بالنبرة القاسية، إلى حد ما، لشكواك. واجهتنا مسائل عملية توجّب التعامل معها؛ كان لا بد من نقل السرير وإلّا لما تمكّنّا من تركيب الزنزانة وفقاً للّوائح. أمّا من سيدفع ثمن الأضرار، أحيطك علماً بأن السلطات تخطط لإحضار فريق من العمال من مختلف الحرف ليعيدوا أثاثك وجدرانك إلى حالتها الأصلية مقابل مبلغ بسيط. لكنك سألت: ماذا أفعل، بحق الجحيم، بقفصي المروّع هنا في غرفتك؛ في المقابل، أسألك بدوري، هل تعتقدين أنني هنا بمحض إرادتي؟ هل تعتقدين أنني أحب أن أكون سجيناً؟»

«لا يهمني ما إذا كنت سجيناً بإرادتك أم بإرادة شخصٍ آخر. ما يعنيني هو أنني لا أستطيع تحمّل وجود قفصك في غرفة نومنا!»

«إنه ليس قفصاً. هذه اللفظة تحمل دلالة بغيضة عن حيوانات أسيرة؛ وهي عكس الروح الإنسانية التي تسترشد بها سلطاتنا الحكومية. كما إنّه ليس زنزانة أو قبواً. إسمه التقني هو وعاء إعادة الدمج.»

هذا التصويب زاد من إنزعاج *سوزانا*.

«لماذا يجب أن يكون في غرفة نومنا؟ لماذا في غرفة نومنا؟ لماذا في غرفة نومنا؟ لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟»

«النـوّاب وأعضـاء مجلـس الشـيوخ الأرجنتينيـون أذكيـاء جـداً، ومتعلمون، ومجتهدون، وصادقـون، وبسـطاء، وذوو قـدرة عاليـة علـى الإيثـار. وبفضـل هـذه الفضائـل، أصـدروا قوانيـن جديـدة تُعـرف جميعهـا بإسـم لوائـح إعـادة الدمـج الاجتماعـي، وهـي ...»

قاطعتُه: «هل تتوقع مني أن أصدق أنك في غرفة نومنا بسبب هذه اللوائح الجديدة؟»

وضع قبعته على سبابته اليسرى، وأمسك بحافتها بيده اليمنى، وأدارها وهو يهز رأسه:

«أنـا مجـرد نزيـل؛ أؤدي وظيفـة متواضعـة جـداً ضمـن نظـام السـجن. أنتمـا الإثنيـن تتمتعـان بدرجـة واحـدة أعلـى مـن مرتبتـي؛ مـن الناحيـة النظريـة، يجـب أن تكونـا أكثـر درايـة منّـي بمثـل هـذه الأمـور. ومـع ذلـك، مـن الناحيـة العمليـة، لا تسـير الأمـور بهـذه الطريقـة أبـداً، فأنـا عضـو فـي النظـام منـذ سـنوات عديـدة، بينمـا تـم قبولكمـا فيـه للتـو. يجـب أن تكونـا سـعيدين لقبولكمـا فيـه، لكـن لا يبـدو ذلـك عليكمـا البتـة. هـذه الظاهـرة تحـدث عـادة، ولكـن ليـس لأغلـب النـاس، علـى أيـة حـال. عندمـا تتعرفـا علـى اللوائـح الجديـدة لـن تشـعرا بالفـرح فحسـب، بـل بالفخـر أيضـا.»

ضمّت *سوزانا* قبضتيها بشدة.

أردف الرجل قائلاً: «إذا سـمحت لـي، يمكننـي مشـاركتكما بعـض المعلومـات حـول نظـام إعـادة الدمـج الاجتماعـي ...»

«كلـي شـوق لسـماعها»، قلـت وأنـا أكاد لا أطيـق طريقـة حديثـه البطيئـة.

«عقب مراجعة السلطات للنظام القديم وجدتْ أنه لا يلبّي احتياجات المجتمع الحديث؛ لهذا، لم يتوانوا في استبداله بآخر، بناءً على توافق في الآراء. هل أشرح ...؟»

«نعم، نعم، استمر»، قلت، ملوحاً بيدي بصبر نافد.

«يقوم نظام إعادة الدمج الاجتماعي على مبدأين مترابطين: (أ) و (ب). مبدأ (أ) هو إعادة دمج السجين التدريجي في المجتمع. ومبدأ (ب) هو استبدال النظام القديم لوحدات الحبس الجماعي بنظام الحبس الفردي. تتولى الشركات العقارية توزيع السجناء في مساكن جديدة؛ وبفضل هذه السياسة، هدمت السجون القديمة وجرى استبدالها بمتنزهات وميادين عامة.»

«لكن لماذا في مساكن جديدة؟»

«المساكن القديمة لا تتمتع دائماً بمظهر جميل، ويمكن أن تؤثّر سلباً على نفسية السجين. من ناحية ثانية، فإن بيئة السجن الحديث لها تأثير إيجابي كبير على إعادة دمج السجين في المجتمع. زد على ذلك أن خفارة سجين تجلب الكثير من الفرح لأصحاب المنازل الجدد؛ الأمر كما لو ...»

«هل يعني هذا أنّ *سوزانا* وأنا بمثابة الحرّاس، وأنت سجيننا؟»

هزّ رأسه مرة ثانية بخيبة أمل.

«لم تعد السلطات تستخدم مصطلحات الحرّاس والسجناء؛ بل تطلق عليهم مرشدون ومتدرّبون، وهي المسميات الأكثر ملاءمة لمبدأ (أ) من النظام: إعادة دمج السجين التدريجي في المجتمع؛ ألا تظن ذلك؟»

«لكنني أرى أن كلاكما، أنت والسلطات، تستخدمان لفظة سجين.»

«مجرّد إستعارة شعرية، لكي يعي المرشدون التزاماتهم.»

«التزامات ...؟»

«لنقل واجبات؛ وهي بسيطة وقليلة. ما عليك إلا أن تزوّدني بالطعام، والملابس، والمساعدة الطبية والنفسية، والتمارين الرياضية، وأدوات النظافة، وما إلى ذلك، بالكمية والجودة المناسبة. باختصار، جميع المستلزمات المادية التي يحتاجها الإنسان؛ بالإضافة إلى توفير التأهيل الروحي للمتدرب عبر الترفيه والمعلومات. يحق لي أيضاً الحصول على صحف، ومجلات، وكتب، وتلفزيون، وأجهزة سمعية. في ليلتيّ الثلاثاء والخميس من كل أسبوع، سيأتي بعض الأصدقاء من سنّ معينة لزيارتي، حيث نستمتع معاً بلعب الورق والنرد؛ وغنيّ عن القول إنّه من المتوقع أن تقدّمدوا لهم تشكيلة من الوجبات الخفيفة والمشروبات.»

«كم سيكون عدد الأشخاص؟»

«ليس أكثر من ثمانية أو عشرة. وبالمثل، فأنا لم أتخلى عن ممارساتي الجنسية: في ليالي السبت، تزورني الآنسة كوكي، وهي شابة جميلة وجذابة ومتعلمة. بطبيعة الحال، لا يمكن لإمرأة شابة تتمتع بكل هذه الصفات أن تقع في حبي؛ لذا، يجب أن تعوّضاها عن خدماتها. لست على دراية بالسعر المحدد، فأنا أكره التعامل مع الأشياء الحقيرة مثل المال. في المقابل، أستمتعُ بالفن، وثلاث مرات في الأسبوع، الاثنين والأربعاء والجمعة، أتلقّى دروساً في قرع الطبول علي يد شابٍ يحب موسيقى الروك ويستمتع بالموسيقى الهادئة، وأتعابه ليست باهظة.»

«ولكن»، قاطعته *سوزانا*: «كيف يمكننا أن نتكفّل بكل هذه النفقات الكثيرة؟»

«أنا لست بالرجل المحظوظ»، هزّ رأسه مجدّداً؛ «زملائي الآخرون يقيمون الآن في منازل ذات وضع اقتصادي قوي... للأسف، الحياة غير عادلة في الغالب... أقترح عليكما توثيق المشكلة في خطاب رسمي، مرفق به وثيقة منفصلة، كملحق، من أصل وأربع نسخ في أوراق رسمية مختومة، يوقّعُها محاسب عام وكاتب عدل. يجب أن تحتوي هذه الوثيقة الملحق على سرد مفصل للإيرادات والمصروفات حتى تثبتا وجود ضائقة مالية. تبذل السلطات دوماً قصارى جهدها لحلّ جميع المشاكل التي يتعرض لها المرشدون، وربما يعطونكم منحة إرشادية.»

صمتَ فجأة، في تلميح جليّ أنّه قد ذهب أبعد ممّا ينبغي في الكشف عن هذه المنفعة. بات لزاماً عليّ أن أسأل:

«ماذا تتضمّن المنحة الإرشادية؟»

«إنها تنطوي على حقوق ومسؤوليات. بالنسبة للأولى، ستجتهد السلطات في أن تجد لكما وظائف ليلية. على سبيل المثال، يمكن أن يعمل السيد كموظف في إحدى محطات السكك الحديدية في ضواحي بوينس آيرس. فيما يتعلق بالسيدة، لا أعتقد أن الآنسة كوكي سترفض إشراكها معها في أسرار مهنتها. مقابل هذه الامتيازات، سيتعينُ عليكما حضور دورات شاملة لتطوير المرشدين؛ تكلفة هذه الدورات منخفضة للغاية، وتقام في مدينة لوخان.»

«لوخان»، تلعثمتُ بغباء. «إنها بعيدة للغاية!»

«لست مرغماً على طلب المنحة»، قال متثائباً؛ ثم أضاف: «لقد حان وقت العشاء تقريباً؛ ليس لدي أي تفضيلات خاصة، أقبل بأي وجبة تقدّمونها طالما أنها وفيرة ومتنوعة، مع التوابل المناسبة، ويرافقها نبيذٌ أحمر عالي الجودة.»

ركضت *سوزانا* إلى المطبخ.

«أنا معتادٌ على الإستحمام قبل العشاء؛ هاك مفتاح الزنزانة.»

سلّمني المفتاح من خلال القضبان؛ فتحت له الباب وخرج. كان يحمل حقيبة رياضية صغيرة، في تناقضٍ ملحوظٍ مع لباسه الرسمي. مع أنه في حد ذاته يشبه مخلفات العصور السابقة، إلا أن مشيته بثّت شعوراً متناقضاً بالصحة والقوة والرفاهية.

«لستَ بحاجة إلى الاحتفاظ بالمفتاح؛ أنا ابقيه معي لأتمكن من الذهاب والعودة؛ فأنا لا أودّ أن أكون مصدر إزعاج لأي شخص»، قال ذلك ثم صرخ بعدها منادياً: «سيدتي! من فضلك، هل يمكنك رفع درجة حرارة المدفأة قليلاً من أجلي؟»

إستدار نحوي بعدها: «وأنت، أحضر لي منشفة نظيفة. في الغد، لا تنس أن تشتري لي عبوة كبيرة من الشامبو الخاص بالشعر المصبوغ.»

أطعته على الفور؛ قام بلف المنشفة حول رقبته، وغادرنا غرفة النوم وتوقفنا أمام باب الحمام.

«يجب عليّ أن أذكرك أن اليوم سبت، وهو اليوم الذي تأتي فيه الآنسة كوكي. ولأنها إنسانة خجولة جداً، سيكون من الصادم لها مقابلة أناس غرباء؛ لذا، لو سمحت، سيكون لطيفاً منك أن تغادر مع زوجتك قبل الحادية عشر والنصف.»

واضعاً يده على مقبض الباب، أردف قائلاً: «سأستخدم سريركما المزدوج؛ للأسف، لم تتنبه السلطات إلى أن سريركما النظامي شهيرٌ بكونه غير مريح للغاية. أوه... أيضاً شراشف غير مستعملة، أرجوك.»

«أممم ... وكم من الوقت سيستغرق كلّ هذا ...؟»

«يمكنكما العودة ما بين الساعة الثالثة والنصف والرابعة صباحاً. إقرع جرس الباب مرة واحدة؛ إذا لم تتلق إجابةً فلا تقرعه مرة ثانية. الآنسة كوكي مفعمة بالحيوية، وحين تنتهي من عملها، عادةً ما أقع في نوم عميق ومستحقٍ عن جدارة. في هذه الحالة، إرجع مرة ثانية في تمام الساعة العاشرة صباحاً؛ ليس قبل ذلك لأنني على الأرجح سأكون هاجعاً، وليس بعد العاشرة حيث أنني أتناول فطوري عادةً في تمام العاشرة والربع.»

أثناء دخوله الحمّام، تمكّنت من سؤاله:

«كم هي مدة عقوبتك؟»

«إنها عقوبة سجن مدى الحياة»، أجاب، وكلماته تغرق في صوت مياه الاستحمام الجارية.

حملة صليبية نفسية

الطريقة المثلى لمعرفة جوانب الإنسان الخفية هي وضع الشخص المعني في مواقف جديدة كلياً، ومن ثمّ مراقبة ردود أفعاله. أقصد بهذا، مثلاً، أنني لو أجريت مكالمة هاتفية وسمعت صوتاً على الطرف الآخر من الخط يقول: «مرحبا»، فلن يكون لهذه التجربة أي قيمة علمية أو معلوماتية، لأن الشخص لم يفعل شيئاً أكثر من مجرّد التفاعل بطريقة روتينية، إستجابة لموقف روتيني مماثل. لذا، فهو لا يوفّر لي فرصة معرفة أي جوانب خفية في شخصيته!

كيف لي أن أعلم، على سبيل المثال، ما إذا كان صاحب متجر معين، على الرغم من بذله الود والابتسامات أثناء شرائي منه، قادراً على خنقي بسبب بضع قطع نقدية؟ أفضل شيءٍ إذاً هو إثارة ردود فعل هذا الرجل غير المتوقعة؛ فبوسعها أن تكون مفيدة للغاية.

سأقترح عدة أمثلة.

1. اشتري نصف كيلوغرام من الخبز، وأدفع ثمنه بأكبر ورقة نقدية متداولة، وأرفض رفضاً قاطعاً قبول باقي المبلغ؛ أراقب بعناية جشع الخبّاز وهو يتهيأ للإستفادة من جنوني المفترض؛ ثم أغادر المتجر. بعد دقائق معدودة، أعود ثانية إلى المتجر برفقة ضابط شرطة وأتهم الخبّاز برفض

تسليمي الباقي؛ أدرس غضبه من سوء نواياي وخيبة أمله في عملية النهب الفاشلة؛ إنه خائف ومرتبك، يتلعثم بأعذار غير مفهومة تحت نظرات الشرطي المرتابة، الذي بالطبع لا يعتقد أن أحداً يرفض أخذ هذا المبلغ الكبير المتبقي. يسلّمني الخباز المبلغ المتبقي بكل خضوع، بينما أصرّح بشهامة أنني أفضّل اعتبار الحادثة غير السارة منتهية! محبطٌ قليلا، يتمتم الضابط: «كما تريد». أتأمّل -مستمتعاً- الراحة الهائلة التي تجتاح وجه الخبّاز.*

2. أدعو صديقاً لي لتناول العشاء في منزلي؛ عندما يصل، أقوم بمنعه من الدخول، متهماً إياه أنّه، قبل اثني عشر أو أربعة عشر عاماً، سلبني صديقتي التي كنت طبعاً أحبّها بجنون! أراقب ذهوله (تعارفنا منذ بضعة أشهر فقط)، شكّه (هل يمكن أن أكون ذلك الشخص الذي ...)، إزدراءه، غضبه...
3. أصعدُ إلى الحافلة وأقول للسائق: «أريد مكان كذا وكذا»؛ حينما يفتح السائق يده لقبض الأجرة، عيناه مثبتتان على الطريق أمامه، أسقط فيها رخّ شطرنج وغصناً من البقدونس! السؤال هو: كيف سيفسر سائق الحافلة، عادة ما يكون شخصاً ذا أعصاب متوترة، هذا العرض الملغز؟
4. أقوم برحلة إلى مدينة مار ديل پلاتا، وأنزل في أحد أفخم الفنادق؛ بمجرد أن أختلي بالغرفة، أُخرِجُ السرير إلى الردهة وأنعم فوقه بغفوة مريحة، مستحقة بجدارة، خاصةً بعد الرحلة المتعبة.
5. أسمحُ لنفسي بالتسلّل إلى أيّ منزل في غياب أصحابه؛ أثناء انتظاري قدومهم أجلس هادئاً، أدخّن، أشرب الويسكي،

أشاهد التلفاز. عندما يصل أصحاب المنزل أقوم بمهاجمتهم بشدة، ملوحاً بقبضتي في وجوههم، صائحاً: «كيف تجرأون على دخول بيتي أيها السادة المحترمين؟»، دون أن التفت إلى تفسيراتهم، أو ألتفت إليها (الأمر سيان). ثمّ أطالبهم بإظهار سند ملكية المنزل، ولا أسمح لهم بفتح الدرج الذي يزعمون بشكل سخيف أن السند بداخله، لأنّ الدرج جزءٌ ثابتٌ من الأثاث الذي هو بدوره جزءٌ لا يتجزأ من منزلي؛ وبالتالي، لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يحتوي على سند ملكية منزل لأشخاص غرباء، أو شخصيات مشبوهة وربما مجرمين وأعضاء معروفين في العالم السفلي، إلخ، إلخ.

6. أتعرّفُ على فتاة رائعة، سخيفة إلى حد ما، لكنّها جميلةٌ جدا؛ أطلب منها الخروج معي في موعد، أصارحها بحبّي، وأصبح خطيبها. يحل موعد حفلة الخطوبة التي تقام في منزلها؛ أحدهم يقترح نخباً، ثم نخبٌ آخر، ونخبٌ ثالث. أخيراً، تأتي اللحظة المنتظرة التي يقدّمُ فيها الخطيب، فتىً مهذبٌ وبسيطٌ جداً (إن كان يوجد مثله)، الهدية المفاجأة الجميلة، التي طال الحديث حولها. بابتسامة حب وسعادة، أقدّمُ لها علبة كبيرة الحجم؛ تشعر العروس بوزنها الذي يبدو لها ثقيلاً. يستحوذ الفضول على وجوه الحاضرين، فيتحلقوا، وتتجمع النساء حول العروس السعيدة. تفكّ شريط الزينة الحريري المعقود على هيئة وردة، تنزع ورق التغليف الأنيق؛ يظهر الآن صندوقٌ ناعمٌ مبطن بجلدٍ مخمليٍ أسود.

جوهرة ثمينة! تعتقد صديقتي، بريق الجشع في عينيها يبرّرُ فعلتي مقدما. تندفع أصابعها لفتح القفل الأوتاميتيكي، يرتفع الغطاء بصوت فظ ولكن فخم؛ وبين ذراعيّ صديقتي العاجيتين، يتموّجُ ثعبانٌ مرجانيٌ جميل ومتعدد الألوان، مبهج وسامّ للغاية، بحثاً عن الحرية.

7. أنتظر حتى يجلس مدير الشركة التي أعمل بها في مكتبه المثير للإعجاب والمفروش بالسجّاد، ويباشر الحديث مع عميلٍ جديد حول إتمام صفقة شراء وشيكة بمبلغٍ فلكي؛ حينها أطرق ببراجمي الباب بحياء، وأدخل بخطواتٍ رصينةٍ ومتواضعة بعد سماعي كلمة «أدخل». بملامح ابتسامة رزينة، أقول: «بإذنك سيدي»، ثم أمشي إلى الخزانة الخشبية الفاخرة، وأفتحها ثمّ أبولُ بغزارة على المجلدات والكتب واللوازم والعقود والوثائق والأوراق التي قد تكون مهمة وقد لا تكون!

بالطبع، هناك أيضاً بعض البدائل الأبسط، أتركها لأولئك الذين لا يزالون يفتقرون إلى التدريب الكافي، ويرغبون في بدء هذه الحملة النفسية الصليبية. هذه بعض أمثلتها:

إبداء إطراءات ومجاملات عاطفية وجنسية أيضاً لأعضاء جيش الخلاص، بغض النظر عن جنس المخاطب أو عمره! الوقوف على ميزان الصيدلية وشغله طوال اليوم، دون السماح لأيٍ كان بوزن نفسه! شراء مئتي جرام من السلامي مقطعة إلى شرائح رفيعة، ثمّ فتح العبوة، والقيام برصّ الشرائح الحمراء الجميلة على هيئة قلب، وكتابة عبارة «أنا أحبك» بها على

منضدة بيع الأطعمة المعلبة! السفر بالحافلة والجلوس في مقعد الممر، بانتظار الوقت الذي يجب أن ينزل فيه الجار، رجلاً كان أو امرأة، ويقول «المعذرة»؛ فتجيبه بشكل قاطع: «لا»، رافضاً بالفعل السماح له بالمرور!

يمكن للحملة الصليبية النفسية أن تتسبّب في ليال مؤرّقة (كما تفعل أي حملة صليبية)، ما يعني التورّط في صعوباتٍ خطيرة (مثل أي حملة صليبية)، ولكن ماذا تشكّل هذه المساوىء مقارنةً ببهجة مراقبة ردود الفعل التي تثيرها الحملة؟

على أي حال، هذا ما أتخيله؛ فأنا، أعترف، لست أكثر من مجرد منظّر، ومن المحتمل ألا أضع أفكاري أبداً موضع التنفيذ. لكن يمكنك أنت، بل يجب عليك، القيام بذلك!

*لاحظ أننا نتعامل مع مجرد فرضيات. سيتفاعل هذا الخبّاز على النحو المذكور، لكن خبّاز الحيّ المجاور ربما لن يرهبه وجود ضابط الشرطة، وسيؤكّد للجميع أنّه أعطاني باقي النقود، إلخ. حسبما يتضح، من خلال تكرار هذه التجربة مع خبّازين مختلفين، وبالأخص مع رجال شرطة مختلفين، يمكننا أن نسبر أعماق أرواح الخبّازين؛ وهذا صحيح بدرجة أقل بالنسبة لأرواح رجال الشرطة!

مجّرد إيحاء

يقول عنّي أصدقائي إنني سهلُ التأثّر للغاية. أعتقد أنهم على حق؛ كبرهان على ذلك، يذكرون واقعة بسيطة حصلت لي يوم الخميس الماضي.

كنت أقرأ رواية مرعبة ذلك الصباح؛ ومع أنّ النهار كان في أوجِه، إلا أنّني وقعتُ ضحيةً لسطوة الإيحاء. زرع هذا الإيحاء في داخلي فكرة وجود قاتلٍ شرسٍ في المطبخ، يحمل خنجراً ضخماً، ينتظر أن أدخل المطبخ كي ينقض عليّ ويغرس خنجره في ظهري. لذلك، على الرغم من أنني كنت أجلس أمام باب المطبخ حيث لا يمكن لأحد أن يدخله من دون أن أراه، وأنّه، بإستثناء ذلك الباب، لم يكن للمطبخ منفذاً آخر، على الرغم من كل هذه الحقائق، إلا أنّني كنت مقتنعاً تماماً أنّ القاتل يتربّص بي خلف الباب المغلق!

هكذا وقعت تحت تأثير الإيحاء، ولم أجرؤ على دخول المطبخ. أثار هذا كوامن القلق في نفسي، فوقت الغداء يقترب وسيتحتّم عليّ حينها أن أذهب إلى المطبخ.

ثم رنّ جرس الباب.

«ادخل!»، صحتُ من مكاني من دون أن أقف؛ «الباب غير مغلق».

دخل بواب المبنى ومعه رسالتين أو ثلاث.

«أشعر بالخدر في ساقيّ»، قلت له، وأردفت: «هل يمكنك الذهاب إلى المطبخ وإحضار كوباً من الماء؟»

«بالطبع»، قال البواب، وفتح باب المطبخ ودخل. سمعت صرخة ألم وصوت جسدٍ ينهار، ساحباً معه أطباقاً أو قوارير زجاجية. قفزت إثر ذلك من الكرسي وركضت نحو المطبخ؛ كان المدير ميتاً، نصفه الأعلى مسجىً على الطاولة، وخنجرٌ ضخمٌ مغروسٌ في ظهره.

حينها، بعد أن شعرت بالإطمئنان، صرت قادراً على الجزم بأنّه، حتماً، ليس ثمّة قاتلٍ في المطبخ.

كانت، بالتأكيد، مجرّد حالة إيحاء!

بيتشيريللي

منذ مدة طويلة من الزمن، امتلأت أرفف كتبي عن آخرها حتى فاضت. كان من الواجب عليّ أن أوسّعها وأزيد في مساحتها، لكن الخشب اللازم والعمالة يكلّفان الكثير من المال؛ لذا آثرت تأجيل هذه النفقات لصالح مصاريف أخرى أكثر إلحاحا. في تلك الأثناء، لجأت إلى حلّ مؤقت: وضعت الكتب بشكلٍ أفقي، وبالتالي تمكّنت من الإستفادة من المساحة الصغيرة المتاحة بشكل أفضل.

من المعروف أنّ الكتب، سواء أوضعت عمودياً أو أفقياً، تجمع الغبار والبقّ ونسيج العنكبوت؛ وأنا لا أمتلك الوقت، أو الصبر، أو الدراية، للقيام بالتنظيف الدوري اللازم.

قبل بضعة أشهر، في يوم سبت غامت سماؤه، قرّرت أخيراً إخراج جميع الكتب، واحداً تلو الآخر، ونفض الغبار عنها، ومسح الأرفف بقطعة قماش مبللة.

على أحد الرفوف السفلية وجدت *بيتشيريللي*؛ بالرغم من الغبار الذي يحتلّ أرجاء المكان، إلّا أن مظهره كان، كعادته، لا غبار عليه! أدركت ذلك لاحقاً؛ في البداية بدا لي كأنه شريط أو خرقة، لكنني كنت مخطئا. كان بالفعل *بيتشيريللي*، من رأسه إلى قدميه. بعبارة أخرى، رجلٌ حقيقي ضئيل، يبلغ من الطول خمسة سنتيمترات!

على نحو سخيف، بدا لي الأمر غريباً كونه مكسواً بالملابس! بالطبع، ليس ثمة سبب ليكون عارياً، وحقيقة أن *پيتشيريللي* ضئيل الحجم لا تبرر التفكير به كحيوان! بتعبير أدق، أنا لم أفاجأ كثيراً لأنّه يرتدي لباساً، ولكن بنوعية اللباس الذي يرتديه: حذاءً جلدياً برقبة عالية، ومعطفاً بذيل واسع، وقميصاً فضفاضاً، وقبعة مزيّنة بالريش، وسيفاً معلّقاً بخصره.

بشاربه الملتمع ولحيته الصغيرة المدببة، كان *پيتشيريللي* صورة طبق الأصل، مصغرة، من *دارتانيان*، أحد أبطال رواية الفرسان الثلاثة، تماماً كما لا أزال أذكر من الرسوم التوضيحية القديمة.

حسناً، لماذا أسميته *پيتشيريللي* وليس *دارتانيان* كما يقتضي المنطق؟ أعتقد، قبل كل شيء، أن مردّ ذلك لسببين متكاملين: الأول هو أن بنيته الجسدية الرشيقة تتطلب حرفياً صوت كسر حرف العلّة في كلمة *پيتشيريللي*، وتستبعد وفقاً لذلك قوة حرف المدّ في كلمة *دارتانيان*؛ والثاني هو أنّني عندما تحدثت إليه بالفرنسية لم يفهم ولا كلمة واحدة، ممّا أظهر لي أنه ليس فرنسيًا، ما يعني أنه ليس *دارتانيان* أيضا.

لا بدّ أن *پيتشيريللي* يبلغ من العمر خمسين عاماً، فشعره الداكن تتخلله بعض الخصلات الفضية. هكذا حسبت عمره، بذات الطريقة التي نتّبعها مع البشر من حجمنا. إلا أنني لا أعلم ما إذا كان من الملائم إتّباع طريقة تتناسب مع صغر حجمه؛ يميل المرء لدى رؤية حجمه الضئيل جداً إلى التفكير - من دون مبرر؟ - أنّ حياة *پيتشيريللي* لا بد وأن تكون أقصر، وأنّ وقته يمضي بوتيرة أسرع من وقتنا، كما هو الحال مع الهوام أو الحشرات.

لكن من بوسعه معرفة ذلك؟ وحتى لو كان الأمر كذلك، فكيف يمكن تفسير إرتداء *پيتشيريللي* ملابس من القرن السابع عشر؟ هل يعقل أن عمره قرابة أربعمائة عام؟ هل بإمكان *پيتشيريللي*، هذا الكائن الذي يشغل مساحة متناهية الصغر، أن يمتلك هذا العمر الطويل؟ *پيتشيريللي*، هذا الكائن ذو المظهر الهش؟

أودّ أن أطرح هذه الأسئلة وغيرها على *پيتشيريللي*، وبودّي لو يجيب عليها. في الواقع، أنا دائماً أطرح هذه الأسئلة عليه، و *پيتشيريللي* يجيب عليها فعلا! غير أنّه لا يستطيع أن يعبّر عن نفسه بطريقة مفهومة، ولا أعلم ما إذا كان حقاً يفهم أسئلتي! إنّه يستمع إليّ بإهتمام بادٍ على محيّاه؛ وبمجرد أن أصمت، يبادر بالإجابة. نعم، يجيبني، لكن بأي لغة يتحدث؟ ليته على الأقل يتكلم بلغة لا أتقنها؛ المشكلة أنه يتكلم بلغة غير موجودة على وجه الأرض!

على الرغم من أن بنيته الجسدية تتلائم تماماً مع صوت حرف العلة المكسور، فإن صوت *پيتشيريللي* الصغير عالي النبرة ينطق فقط بالكلمات المقتصرة على صوت حرف علة مضموم! بالطبع، نظراً لأن نبرة *پيتشيريللي* حادّة، فإن صوت الضمّ يبدو وكأنه كسْرٌ، تقريبا. بَيْدَ أنّ هذا مجرد تخمينٍ من جانبي، حيث أنه لم يلفظ حرفاً مكسوراً أبداً؛ ومن ثم لا يمكنني أن أجزم، على سبيل المقارنة، أنّ صوت الضم هو بالفعل صوت ضم وليس، في الواقع، صوت حرف علة آخر!

على قدر معرفتي القاصرة، حاولت تحديد اللغة التي يتحدث بها *پيتشيريللي*؛ لكن محاولاتي باءت بالفشل، إلّا أنني تمكّنت من

اكتشاف سلسلة ثابتة من الحروف الساكنة والحروف المتحركة في حديثه.

قد يصبح لهذا الاكتشاف بعض الأهمية في حال تيقُّن المرء من أنّ *بيتشيريللي* حقاً يتحدث بلغة محددة؛ لأنّ أيّ لغة، مهما كانت رديئة أو بدائية، تتميز بنطاق لغوي معين. لكن ما حصل هو أنّ كلّ كلام *بيتشيريللي* يمكن اختصاره في هذه العبارة: «دولوكوتورو پوڤوسورو كولوڤوكو».

أسميتها عبارة من قبيل تبسيط الأمر؛ فمن ذا الذي بإمكانه معرفة ما تحتويه هذه الكلمات الثلاث؟ هل هي حقاً كلمات، وهل هي بالفعل ثلاث؟ لقد كتبتها على هذا النحو وفقاً للوقفات التي أحسست بها في نغمة *بيتشيريللي* الرتيبة.

على حد علمي، ما من لغة أوروبية لديها مثل هذه الخصائص الصوتية؛ بالنسبة للّغات الأفريقية والأمريكية والآسيوية، فجهلي بها مطبق! لكن هذا لا يقلقني أبداً، لأن الأدلة جميعها تشير إلى أن *بيتشيريللي* من أصول أوروبية، مثلنا.

لهذا السبب خاطبته بجمل من اللغات الإسبانية والإنجليزية والفرنسية والإيطالية؛ حتى إنني حاولت استخدام بعض الكلمات الألمانية. في كل هذه الحالات، يجيبني صوت *بيتشيريللي* الصغير الهادىء:

«دولوكوتورو پوڤوسورو كولوڤوكو.»

أحياناً يثير غضبي *بيتشيريللي*، ومرّات أخرى أشعر بالأسى من أجله. من الواضح أنه يأسف لعدم قدرته على التعبير عن نفسه، وبالتالي بدء محادثة معنا.

«معنا» تشمل زوجتي وأنا؛ لم ينجم عن تطفّل *بيتشيريللي* أي تغيير في حياتنا. بل في الحقيقة، نحن نقدّر *بيتشيريللي* ونحبه أيضا، ذلك الفارس الصغير الذي يأكل معنا بطريقة مهذبة للغاية، والذي بحوزته - وحده الرب يعلم أين - ملابس وممتلكات شخصية متلائمة مع حجمه.

مع أنني لم أتمكن من جعله يجيب على أسئلتي، إلّا أنني أعلم أنه يعي أننا نسمّيه *بيتشيريللي*، ولم يبد أي إعتراض على ذلك. في بعض الأوقات، تناديه زوجتي *بيتشي*، تودداً؛ وهذا يبدو لي مبالغة في الثقة. لا شكّ أنّ ضآلة جسمه تفسح المجال لأسماء وألقاب التدليل والتصغير والتحبّب؛ لكن، من جهة ثانية، هو بالفعل رجل ناضج، وربما يبلغ من العمر عدة قرون؛ وعليه سيكون من الملائم أن نناديه السيد *بيتشيريللي*، لولا أنه من الصعب جداً مناداة مثل هذا الرجل الصغير سيّد!

بشكل عام، *بيتشيريللي* ذكي جداً، وسلوكه مثالي؛ ومع ذلك، أحياناً يستخدم سيفه في مواجهة الذباب أو النمل؛ ومرّات أخرى، يجلس في لعبة شاحنة صغيرة، وأقوم بسحبه بخيط، مصطحباً إياه في جولات طويلة حول الشقة؛ كانت هذه هي تسليته الإستثنائية.

هل سيصاب *بيتشيريللي* بالملل؟ هل سيغدو وحيداً في العالم؟ هل هناك مخلوقات أخرى مثله؟ من أين أتى؟ متى ولد؟ لماذا يرتدي زي الفرسان؟ لماذا يعيش معنا؟ ما هي نواياه وأهدافه؟

أسئلة عديمة الفائدة تكرّرت مئات المرات؛ والإجابة عليها واحدة، بصوت *بيتشيريللي* الرتيب:

«دولوكوتورو بوڤوسورو كولوڤوكو.»

هناك الكثير من الأشياء التي أرغب في معرفتها عن *پيتشيريللي*؛ يالها من أسرار كثيرة تلك التي سيحملها معه إلى القبر؛ فهو، للأسف، يحتضر منذ بضعة أسابيع. لقد عانينا كثيرا عندما سقط مريضا؛ علمنا على الفور أنّ مرضه خطير. ولكن كيف نعالجه؟ من يجرؤ على إخضاع الجسد الصغير للكائن المسمى *پيتشيريللي* لحكم طبيب؟ ما هي الشروحات والتبريرات التي سنقدمها؟ كيف لنا أن نفسّر ما لا يمكن تفسيره، وكيف نتحدّث عن شيء نحن جاهلون به؟

حقاً، سيتركنا *پيتشيريللي*؛ وبلا مقاومة، سندعه يموت. ما يقلقني فعلياً هو معرفة ما سنفعله بجثّته غير المنظورة تقريباً. لكن بشكل أكبر وغير محدود، أشعر بالقلق بشأن عدم الخوض بعمق في السرّ الذي كان بين يديّ، وأنّه، رغماً عنّي، سوف يفرّ منّي إلى الأبد.

مشكلة محلولة

من منّا لم يسمع بمجموعة الشعار المالية وهي مؤسسة إقراض، تموّل شراء المركبات، والآلات الزراعية والصناعية، والممتلكات المنقولة المتّسمة بالتعقيد، بشكل عام؟

قضيت ثلاث سنوات أعمل في فرع حي باركي باتريسيوس الواقع على جادة كاسيروس. عقب ترقيتي إلى منصب أعلى، نقلتني الشركة إلى فرع باليرمو على جادة سانتا فيّ. كان هذا التغيير إيجابياً بالنسبة لي، نظراً لأن سكني يقع على شارع كوستاريكا، على بعد ستة مبانٍ فقط.

بالرغم من أن اللوائح تمنع ذلك، كان يزورنا بين الحين والآخر بعض الباعة ومناديب المبيعات الذين يتاجرون بمنتجات متنوعة. يميل رؤساؤنا إلى التساهل، فيسمحون لهم بالدخول؛ فصار من عادة الموظفين شراء بعض الأغراض من هؤلاء الأشخاص.

هكذا قابلت بويتوس؛ شخص غريب بصورة استثنائية. كان نحيفاً مثل سلك، نصف أصلع، يضع نظارة عتيقة الطراز؛ يرتدي دائماً نفس البدلة الرمادية الباهتة والبالية؛ هذا المظهر يعطي الإنطباع بأنه رجل هارب من فيلم من عصر الأفلام الصامتة. لديه عيب في النطق، حيث يظهر حرف الراء شبيهاً بحرف الدال!

كان يبيع الموسوعات والقواميس بالتقسيط، ويبيع الكتب الأخرى ذات الثمن المنخفض بالنقد الفوري. أصبحت أحد عملاء بويتوس،

فالعلاقة بيننا كانت ملائمة ومريحة تماماً: أطلب منه كتاباً معيناً لمؤلف معين، فيعود بإلتزام صارم بعد بضعة أيام ومعه الكتاب المطلوب، وبنفس سعر متجر الكتب المحلي.

لم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً حتى أدركت أن *بويتوس* لم يكن مغالياً في مظهره فحسب، ولكن في حركاته وطريقة حديثه أيضا. فالمفردات التي يستخدمها غريبة وحصرية على حد سواء؛ مثلاً، عندما يتحدث عن رئيس الدولة *خوان پيريز*، يشير إليه بقوله: «الرئيس كذا وكذا». لم يكن يمشي على الرصيف بل على الشارع ذاته؛ لا يركب قطار الأنفاق أو الحافلات الصغيرة أو القطارات؛ ولكن يستخدم نظام نقل الركاب العام. أبداً لم يقل: «أنا لا أعرف»؛ بل يستعيض عنها بقوله: «أنا أجهل.»

ذات يوم، ذهلت من محادثة دارت بالقرب مني ولم أصدّق أذني. كنت حينها في مكتبي أهتم ببعض الأمور المتعلقة بالعمل؛ سمعت *لوسي*، إحدى موظفينا المخضرمين الذين هم على وشك التقاعد، تسأله: «أخبرني *بويتوس*، هل فكرت يوماً في الزواج؟»

أجبرني فضولي على الإلتفات وإلقاء نظرة على *بويتوس* الذي ابتسم ابتسامة متعاطفة، ومتسامحة، إن صح التعبير.

«سيدة *لوسي*، يا عزيزتي، هناك إجابة بسيطة لسؤالك»، توقف قليلاً ليحدث التاثير المطلوب. «لا أستطيع الزواج لثلاثة أسباب: أولاً، أنا لست مقتدراً مالياً؛ وثانياً، لا يمكنني تحمّل التكاليف؛ وثالثاً، أنا لا أملك المال.»

إجابة *بويتوس*، بالإضافة إلى الذهول البادي على وجه *لوسي*، جعلاني أنفجر ضاحكاً بالرغم من أنني بذلت قصارى جهدي

لاحتواء الضحك. قلت لنفسي: «حقاً، *بويتوس* هذا هو ممثل كوميدي رائع.»

المهم في الأمر أنني اعتدت على زيارات *بويتوس* الدورية، استمتع خلالها، بجانب شراء الكتب، بغرابة أطواره وتناقضاته ومنطقه وسخافاته.

كان دائماً يُرى حاملاً حقيبة جلدية بنية اللون، بالية لدرجة أنّ لونها تحوّل إلى رمادي، يحتفظ فيها بالفواتير والإيصالات ومطويات حول الموسوعات وبطاقات العمل ... بإختصار، أوراق ذات طبيعة تجارية يُطلق عليها عموماً، لا أحد يعلم لماذا، عناصر الإجتهاد. بالإضافة إلى الحقيبة، كان يحمل معه دائماً خمسة أو ستة طرود: رزم من الورق المقوى المموج أو صناديق كرتونية، مليئة بالكتب التي ينوي تسليمها.

جاء اليوم الذي ترقّى فيه مدير فرعنا السيد *چاتي* - وهو شخص ودود ومتفهم - ونُقل إلى المكتب الرئيسي. السيد *ليناريس* الذي حلّ مكانه لم يكن شخصاً سيئاً أبداً؛ لكن لحديثه أسلوب العصر الباروكي؛ يحب الإطناب والمراوغة، ويتمسّك بالمعايير واللوائح. منذ اللحظة التي تولّى فيها منصبه، طبّق جميع لوائح المؤسسة، وبالتالي، لم يُسمح *لبويتوس* أو أي من الباعة الآخرين بتجاوز عتبة فرع مجموعة الشعار المالية في پاليرمو.

كانت مشكلة صغيرة، حُسمت بسرعة. تبادلنا أنا و *بويتوس* أرقام الهواتف كي تستمر عملية البيع والشراء بيننا؛ لكن مع اختلاف واحد: بدلاً من توصيل الكتب إلى المكتب، يحضرها إلى منزلي.

في مرحلة معينة، أدركت أنه مضى على عملي في فرع باليرمو عام كامل، ما يعني أنني أعرف *بويتوس* قرابة العام وأنني اشتريت كتباً منه على فترات منتظمة نوعاً ما. لكنه لم يشر إلى نفسه في أي وقت على أنه بائع كتب، بل يطلق على نفسه لقب ناشر ثقافي.

صار الناشر الثقافي بالفعل يأتي إلى شقتي، مثقلاً بحقيبة أوراقه المتهالكة ورزمه وصناديقه الكرتونية، ليسلمني كتبي، وأثناء ذلك كان عادةً ما ينغمس في سرد مستمر من المغالطات وجدال سفسطائي مثير للدهشة؛ وبعد حوالي ربع الساعة يغادر إلى شأنه.

أذكر جيداً زيارته الأخيرة؛ أطلق *بويتوس* فيها العنان لمونولوج غريب للغاية ومطوّل، يهدف إلى شرح تصنيف عبثي من ابتكاره. وفقاً لفكرته، كانت القهوة عبارة عن شراب، والشاي عبارة عن نقيع، وأوراق المتّة المغلية منشط. ومع ذلك، لم أتمكن من جعله يشرح أسباب هذا التصنيف!

الغريب في الأمر أن أفكاره التي كانت تسليني في البداية بدأت فجأة تزعجني، من دون شك، بسبب رفضي العميق تجاه اللاعقلانية وكل ماهو خاطىء. وعلى الرغم من أنني نجحت في إخفاء إنزعاجي، إلا أنني راقبت *بويتوس* بسعادة وهو يغادر في النهاية بحقيبته الرثّة وصناديقه ورزمه.

نظراً لأن مدخل الطابق الأرضي كان مغلقاً بشكل دائم، فقد اضطررت إلى مرافقته كي يتمكن من الخروج من المبنى. حين عدت إلى شقتي، أدركت أنه قد نسي طرداً فوق أحد الكراسي.

كان صندوقاً دائرياً من الورق المقوى، يشبه إلى حد كبير تلك المستخدمة لتخزين قبعات الرجال؛ على جانبيه تدلّى شريطان أخضران، مثبتان على الحافة كوسيلة لحمله براحة وسهولة.

رفعت غطاء الصندوق لأنظر ما بداخله؛ على الرغم من أنه لا يمكن أن يكون قد وصل إلى منزله بعد، فقد اتصلت به على الفور لإبلاغه بشأن البضاعة المنسية. رنّ جرس الهاتف خمس مرات قبل أن يجيب جهاز الرد الآلي. تركت رسالة، بلهجة مهذبة لكن حاسمة، لا تدع مجالاً للشك.

لم يرد *بويتوس* على اتصالاتي في تلك الليلة ولا في اليوم التالي. اتصلت به لعدة أيام متتالية وفي أوقات مختلفة، تاركاً له رسائل كثيرة على جهاز الرد الآلي.

عندما اتصلت به بعد أسبوع، رنّ جرس الهاتف مرّات عديدة لم أحصها، لكن *بويتوس* لم يردّ، وكذلك جهاز الرد الآلي. قلت لنفسي: «لا بد أن الهاتف مفصول». بعد ساعات قليلة، ردّ على مكالماتي صوت أنثوي، يقول: «الرقم الذي طلبته لا يخص أي عميل في شبكة الاتصالات.» وبعد فترة، لم ينتج عن إتصالي برقم *بويتوس* سوى الصمت المطبق؛ وكأن الرقم أو جهاز الهاتف نفسه لم يعودا موجودين.

في المكتب، عندما ذكرت الأمر ل (*روسي*) الذي يعمل في المكتب المجاور لي، عرض عليّ المجيء إلى منزلي؛ وأضاف: «إذا لم يكن في ذلك أي إزعاج لك.»

«بل على العكس تماماً، سأقدّر مساعدتك»، قلت له.

وهكذا، بعد نهاية الدوام، زارني *روسي* في شقتي للمرة الأولى والأخيرة. عندما فتح الصندوق، ندّت عنه إيماءة توحي بخيبة الأمل.

«يا للهول، يبدو أن هذا الأمر سيكون معقداً.»

«بالتأكيد، لا يمكنني القول أنني لم أحذرك.»

بعد ذلك، فقد *روسي* الاهتمام بالصندوق تماماً وصار مشتت الذهن وهو ينظر حوله. خلال بضع ثوانٍ، نجح في جعلي أشعر بالتوتر. أخذ يمشي على طول الشقة باضطراب، وبلا كلل، مقدماً انتقادات أو اقتراحات مختلفة لم أطلبها منه، مثل: «سيكون هذا مكاناً جيداً لتعليق مرآة»؛ أو «ألم تركب حشيات منع التسرب على الأبواب؟ يبدو أن هناك تيار هوائي متسلل.»

ثم توقّف أمام صورة ل(*سيسيليا كاپيلي*)؛ أمسك بها في يده لحظات، ثم وضعها في مكان مختلف قليلاً، معلّقاً: «إذن هذه صديقتك؟ تبدو فتاة لطيفة، تهانينا.»

قلت لنفسي أنّه كان ينبغي عليه الإحتفاظ بملاحظاته وتهنئته لنفسه؛ علاقتي الغرامية مع *سيسيليا* كانت في حالة متدهورة، وقد شعرت عدة مرات برغبة في التخلص من تلك الصورة، فوجودها يثير فيّ مشاعر الضيق والقلق.

ثم عمد بعدها إلى تفقد مكتبتي، مغتنماً الفرصة ليطلب استعارة كتاب «تاريخ كرة القدم الأرجنتينية»؛ أكره إقراض الكتب - واقتراضها أيضاً - لكن بما أنه كان لطيفاً لدرجة المجيء لمساعدتي، لم أجرؤ على الرفض.

لقد تبيّن لي أن *روسي* شخص قلق، وبعد أيام قليلة اكتشفت أيضاً أنّه يحب الدردشة بشكل كبير. ونتيجة لذلك، طلبني السيد

ليناريس يوم الجمعة إلى مكتبه، وأغلق الباب عقب دخولي. من خلال جهاز الاتصال الداخلي، صاح آمراً: «*فلافيا*، من فضلك لا تمرّري أي مكالمة حتى إشعار آخر.»

طلب مني الجلوس بمواجهة مكتبه، ثم قال لي بابتسامة كان من المفترض أن تكون ودّية لكنها بدت متوترة: «عزيزي *ساينز*، لا أريد أن أقحم نفسي في شؤون الآخرين؛ ولكن بطريقة ما، كونك شاباً تبلغ من العمر حوالي 28 عاماً، وجديد نسبياً في الشركة، وبما أنني ...»

قلت في نفسي: «إنّه على وشك أن يلقي بي في متاهة نثره الأعوج!»

« ... أنا أكبر منك سناً إلى حد ما، ولدي الكثير من سنوات الخبرة. وعلاوة على ذلك، فأنا مديرك، وبمثابة الأب في الشركة، أليس كذلك؟ لهذا، فأنا أشعر أن لدي نوعاً من ... كيف لي أن أعبّر عن ذلك ... واجب أخلاقي لمساعدتك؛ ألست على حق؟»

بما أن السيد *ليناريس* كان ينتظر إجابة، وافقته على الفور بإيماءة، مدفوعاً برغبتي في أن يتوقف عن الحديث بأسرع ما يمكن.

«حسناً»، تابع السيد *ليناريس*، «إذا سمحت لي، غداً هو يوم السبت؛ وحيث أنه سيكون لدينا بعض وقت الفراغ، فسوف أقوم بزيارة قصيرة إلى منزلك لمعرفة ما يمكننا القيام به...»

لم يكن لدي خيار سوى قبول عرضه! حين عدت إلى مكتبي، حاول *روسي* تجنب نظراتي إليه؛ غير أنه ما لبث أن اقترب مني بعد بضع دقائق، هامساً في أذني: «إياك أن تظن أنني من أخبره

عن ذلك؛ لقد كان يعرف بالفعل، فليس من السهل إخفاء مثل هذه الأمور.»

تساءلت في نفسي كيف عرف *روسي* أن *ليناريس* علم بالأمر!

كان علي أن أستيقظ مبكرا يوم السبت؛ فليس من المستحسن أن أستقبل السيد *ليناريس* في شقة عازب نموذجي لم تنظف منذ أسبوعين على الأقل. كرّست معظم صباحي لهذه الأعمال الروتينية البغيضة: كنس الأرضية بالمكنسة الكهربائية، ونفض الغبار عن الأثاث ومسحه، وتنظيف الحمام والمطبخ ... أخيراً، بحلول الساعة الحادية عشر كان منزلي في حالة جيدة لاستقبال السيد *ليناريس*.

لم يأت بمفرده؛ ولكن برفقة *أراوخو* عامل المكتب المولع بالقمار، ورجل آخر لا أعرفه يرتدي بدلة وربطة عنق ويضع نظارات طبية.

«دكتور *ڤينانسيو*»، قال *ليناريس* مقدماً الرجل، «إنه ممثّل قانوني، أو إن شئت، كاتب عدل، وسيحرّر محضر الإفادة.»

ثم أضاف بعذوبة شديدة، «أما بالنسبة *لأراوخو*، فهو غنيّ عن التعريف. من لا يدين *لأراوخو* بمعروف، أليس كذلك؟»

ابتسم *أراوخو* بخجل، وكان لا يزال يرتدي زي العمل.

« *أراوخو* هنا فقط كشاهد، حتى يتمكن الدكتور *ڤينانسيو* من الحصول على توقيعه على المحضر.»

«حسناً، لا بأس»، قلت.

كشف السيد *ليناريس* الصندوق، ممسكاً بالغطاء في يده اليمنى، وأمعن النظر في المحتويات بعناية؛ كذلك فعل الدكتور *ڤينانسيو* و *أراوخو* على الفور.

«هل كلّ شيء في محله، *أراوخو*؟» سأل السيد *ليناريس*.

«نعم سيدي، لا مشكلة.»

فرد الدكتور *فينانسيو* أوراق المحضر الثلاثة على طاولة غرفة الطعام، ثم وقّع إسمه على هوامش الورقتين الأولتين وفي أسفل الورقة الثالثة. بعدها مباشرة التفت إلى *أراوخو* وأشار إليه أن يفعل الشيء نفسه. وقّع *أراوخو* ببطء؛ بدا واضحاً أنه لم يكن متمرساً في التعامل مع الأوراق والمستندات.

«هل يجب أن أوقّع أنا أيضا؟»، سألت.

«لست مضطراً إلى ذلك»، أجاب كاتب العدل؛ «لكنه ليس محظوراً أيضاً، الخيار لك.»

«سأقوم بالتوقيع، فقط من باب الإحتياط.»

انتهزت الفرصة لقراءة الإفادة وتأكدت من أنها تتفق بدقة مع الحقيقة؛ ثم وقّعت.

«وأنت يا سيد *ليناريس*؟ هل ترغب في التوقيع؟»

«لا يا دكتور، لا أظن أن ذلك ضروري، كما إنه ليس من الحكمة.»

بعد تبادل بعض العبارات المبتذلة حول الطقس، غادر جمع الزوار.

كنت قد خططت للذهاب إلى السينما في تلك الليلة مع *سيسيليا*؛ ولكن حوالي الساعة السادسة مساءً اتصلت بي لإلغاء الموعد.

«المشكلة هي مع أبي»، قالت موضحة، «هذا إن صح لنا تسميتها مشكلة؛ لا أظن أن الأمر له علاقة بأبي، لكنه يظن

العكس؛ هو يعتقد أن حالتك قد تؤدي إلى خسارته في الإنتخابات الحالية لرئاسة البلدية.»

شعرت برغبة في إخبارها بأن تذهب إلى الجحيم، مع والدها الموقر، عديم النفع، والضليع فقط بالمؤامرات السياسية؛ لكنني تراجعت، مكتفياً بقولي: «حسناً، أوافقك على ذلك.»

فكّرت داخلياً: «أفضل هكذا، فقد سئمت منها.»

بحثت عن عنوان *بويتوس* بواسطة رقم هاتفه، مستخدماً الإنترنت، ووجدت أنه يسكن في شارع فراچا في حي تشاكاريتا. توجهت صباح الأحد إلى المنزل المعني؛ وجدت نفسي أمام سياج خشبي، عليه لافتة مكتوبٌ عليها:

[إشعار: هدم وإعادة تأهيل كامل. شقق من غرفتين وثلاث غرف]

باستثناء بعض الأحداث العرضية، واصلت حياتي مسارها الطبيعي.

لم يمض وقت طويل حتى حصلت على ترقية أخرى، لها ميزة واحدة وبها عيب واحد. الميزة هي زيادة كبيرة في الراتب: فجأة سأكسب فعلياً ضعف ما أحصل عليه الآن، وهو ليس بالمبلغ الصغير أبداً؛ ويكمن العيب في إضطراري إلى أداء مهامي الجديدة في فرع ضاحية بيكار، على مسافة بعيدة جداً من مكان إقامتي.

قمت بعمل موازنة بين الإيجابيات والسلبيات، وفي النهاية قبلت بالترقية، مستسلماً إلى الرحلة الطويلة بين پاليرمو وبين وجهتي الجديدة. كان الخيار الأمثل هو شراء منزل في بيكار أو في سان إيسيدرو، ولكن للحصول على المال اللازم، سأضطر أولاً لبيع شقتي في شارع كوستاريكا.

من دون أن أسعى إليها، حصلت أيضاً على الشهرة، واكتشفت أن امتلاكها لم يكن سيئاً ولا مزعجاً. قابلت مصورين وكتّاب من صحيفتي الأمة و كلاريون، ومن مجلتي كاراس و جنتي؛ وخضعت لمقابلات وجلسات تصوير بوضعيات مختلفة بجانب الصندوق الدائري، مبتسماً تارة وعابساً تارة أخرى. تلقيت دعوات للظهور في برامج أخبارية تلفزيونية، وهو أمر فعلته بشيء من الغرور؛ لم أرفض حتى الدعوات للظهور في برامج حوارية تافهة مليئة بالثرثرة والقيل والقال.

في النهاية، لم ينجح دكتور *إجناسيو كاپيلي* في انتخابات رئاسة بلدية مقاطعة تريس دي فيبريرو، وهي حقيقة أسعدتني بلا حدود. ولأنني في هذه المرحلة كنت مستاءً جداً من *سيسيليا*، فقد بحثت عن عذر بعد بضعة أيام، وقطعت علاقتي بها.

من ناحية أخرى، حدث لي شيء رائع. صار من عادتي عقب الإنتهاء من الدوام تناول وجبة خفيفة بعد الظهر في مقهى بالقرب من محطة بيكار. في ذات التوقيت، يأتي العديد من المعلمات من مدرسة قريبة بعد نهاية اليوم الدراسي؛ كن فتيات لطيفات يتحدثن بصوت عالٍ ويضحكن بصخب وحيوية.

جذبتني واحدة منهن - علمت أن إسمها چييرمينا - والتقت نظراتنا بوضوح عبر مسافة الطاولات أكثر من مرة. ذات يوم عندما كنت أهم بالمغادرة، خططت للقائها على الرصيف، كمصادفة، وتمكنت من بدء محادثة معها. على الفور رافقتها إلى منزلها؛ في البداية ركبنا القطار إلى حي بلچرانو، ثم سيراً على الأقدام حتى منزلها على بعد بضع بنايات. كانت تبلغ من العمر

25 عاماً، وإسمها چييرمينا چروتز، ولا تزال تعيش مع والديها.

سارت الأمور على ما يرام، ولم يستغرق الأمر وقتًا طويلاً حتى أصبحت صديقها؛ وخلال بضعة أسابيع صارت علاقتنا حميمة.

في ظهر أحد الأيام، بينما كنا معاً على سرير أحد الفنادق، سألتني: «أليس من الأرخص لك أن تدعوني إلى شقتك؟»

مدهوشاً، نظرت إلى عينيها، «ألا تعلمين بمشكلتي ...؟»

«كيف لي ألا أعرف؟ الجميع يعلم؛ ولكن لا أظن أن الأمر بهذا السوء.»

الكرم الذي رأيته في عينيها حرّك مشاعري؛ شعرت بالدموع تكاد تغرق عيني، غير أنني أخفيتها سريعا.

في يوم السبت التالي، اصطحبت چييرمينا لمشاهدة فيلم في بلچرانو، وبعد ذلك دعوتها لتناول العشاء في مطعم على جادة كابيلدو.

قلت لها: «حسناً، الآن سنعود إلى منزلي لننهي ليلتنا على نحو مشرّف.»

لدى دخولنا الشقة وإشعال الضوء، هتفت چييرمينا: «أخيراً، رأيت مخبأ السيد ساينز الغامض!»

ولكن قبل أن تتاح لها فرصة التعرف على باقي المكان، توقفت أمام الصندوق الدائري. ترددت للحظة، ثم رفعت الغطاء. لم تتغير تعابير وجهها، لكنها فقط قالت: «لقد كنت على حق، من الأفضل أن نستمر كما كنا من قبل... »

أردت منها أن تكون أكثر تحديداً، فسألتها: «هل نذهب إلى غرفة النوم أم تريدين المغادرة؟»

«آمل ألا أتسبب في إزعاجك، لكنني أفضل المغادرة.»

«لماذا أستاء؟ هذا من حقك...»

كان منـزل *چيپرمينا* بالقـرب مـن زاويـة كوبـا وميـنـدوزا: أوقفـت لهـا سيارة أجـرة وودعتهـا.

لكـن ليـس إلـى الأبـد، فليـس ثمـة سـبب يدعـو للانفصـال؛ علـى العكـس مـن ذلـك، لقـد قربـت التجربـة بيننـا أكثـر.

بعـد ثلاثـة أشـهر تزوجنـا وذهبنـا للعيـش فـي شـقة صغيـرة استأجرناها خـارج المدينـة فـي سـان إيسـيدرو، وسـرعان مـا اكتظت بممتلكاتنـا التـي جلبناهـا مـن منزلينـا السـابقين. وفـي حيـن أن مجموعـة غرفـة الطعـام الخاصـة بـي تتكـون مـن طاولـة وأربعـة كراسـي، لـم أسـتطع سـوى إحضـار ثلاثـة كـراس إلـى شـقة سـان إيسـيدرو.

عانيـت فـي مقـر عملـي مـن أسـئلة سـاذجة كمـا كان متوقعـاً، وواجهـت العديـد مـن العقبـات البيروقراطيـة، لكـن لـم يمنعنـي أي منهـا مـن الاسـتمرار فـي التقـدم الوظيفـي فـي الشـركة.

فـي الواقـع، أود أن أقـول إنـه لـم يكـن لـدي شـيء لأتذمـر منـه فـي هـذا الصـدد؛ فمـع كل نجـاح جديـد كنت أحصـل علـى ترقيـة، واسـتمرت مسـيرتي المهنيـة فـي تسـلق السـلم الهرمـي الوظيفـي وكسـب المزيـد مـن المـال.

بعـد ظهـر يـوم جمعـة، أفضـل لحظـة فـي الأسـبوع، اسـتدعاني مكتـب المؤسسـة الرئيسـي. كبيـر المدراء بنفسـه قـدم لـي التهانـي، وأخبرنـي إنـه، مـن دون أدنـى شـك، سـيجري تعيينـي مديـراً لفـرع مـار ديل پلاتـا خـلال أقـل مـن عـام. «لـذا، عزيـزي سـيد *سـاينز*، سـيكون مـن الأفضـل لـك البـدء فـي ترتيـب شـؤونك مبكـرا.»

مـار ديـل بلاتـا تعدّ وجهـة رائعـة، لكنهـا سـتجبر چييرمينـا *على* الاسـتقالة مـن وظيفتهـا، وسـيتعين علينـا نحـن الإثنيـن الإنتقـال مـن السـكن. مـن ناحيـة ثانيـة، بمجـرد وصولنـا إلـى هنـاك، لـن يكـون مـن الصعب علـى زوجتـي الحصول علـى وظيفـة فـي مدرسـة أخـرى.

لقـد أصبحنـا أنـا و *چييرمينا* مقتصديـن حـد الجشـع؛ نريـد جمـع مـا يكفـي مـن المـال لشـراء شـقة فسـيحة نسـبياً فـي مـار ديـل بلاتـا، وأظـن أننـا سـنفعل ذلـك. السـبيل الوحيـد الممكـن هـو الادخـار والمزيـد مـن الادخـار، فليـس مـن الحكمـة الاعتمـاد علـى الأمـوال التـي سـنحصل عليهـا مـن البيـع المسـتحيل لمقـر إقامتـي السـابق فـي شـارع كوسـتاريكا، والـذي، بالمناسـبة، قطعـت عنـه جميـع المرافـق الحيويـة: الكهربـاء والهاتـف والغـاز والميـاه؛ كمـا توقفـت عـن دفـع رسـوم صيانـة المبنـى والضرائـب البلديـة.

غالبـاً مـا تعلّـق *چييرمينا*، قائلـة: «سـيقاضونك فـي المحكمـة وسيسـتولون علـى الشـقة.»

بلا توانٍ، أجيبها: «لكنهم لن يجدوا مشترٍ لها أبداً.»

«هذا صحيح،» تجيبني بدورها، «وهي ليست مشكلتنا!»

من روائع القصص القصيرة التي قرأتها
١٩/٢/١٤٣٦هـ

نبذة عن المؤلف

اختار *فرناندو سورينتينو*، الكاتب الأرجنتيني الساحر، دولته الأرجنتين لتكون مسرحاً لشخصياته الخيالية؛ أمكنة حقيقية في مدينة حقيقية، ولكنها لا تبدو كذلك من خلال إبداعه. مدينة بوينس آيرس في نصوص *سورينتينو* عبارة عن متاهة من المستحيلات؛ ثقافتها تمثل عدم المصداقية أو السخرية أو الارتباك لمواقف تحدث في الواقع المعاش.

تتميز نصوص *سورينتينو* بحس الفكاهة الذي يحوّل لحظات الإضطهاد النفسي التي تمرّ بها الشخصيات إلى حالات خالدة، حيث تبدأ كل فكرة في تشكيل جزء من رسم لا نهاية له. وهو أيضاً بارعٌ في مزج الفانتازيا مع الفكاهة في إطار مدهش ومقنع أحيانا. شخصيات *سورينتينو* هم أناس يتأملون حياتهم غير العادية، وتأملاتهم لا تقل غرابة عنهم.

ولد *فرناندو سورينتينو* في مدينة بوينس آيرس عام 1942، ويقيم منذ عام 2011 في مدينة مارتينيز بمقاطعة بوينس آيرس. في عام 1968 حصل على لقب أستاذ اللغة الإسبانية والأدب واللاتينية. نشر ما يقرب من ستة وثمانين كتاباً، «وهو رقم قد يبدو فلكياً ولكنه ليس كذلك إذا اعتبرنا أنها تمثّل إنتاج ما يقرب من خمسين عاما»، كما يقول *سورينتينو*. حصل على عدد من الجوائز الأدبية؛ وترجمت قصصه ومقالاته إلى الإنجليزية

والهنغارية والبرتغالية والفارسية والألمانية والبولندية والرومانية والإيطالية والتاميلية والبلغارية والصينية والفرنسية والصربية، كما شارك ببعض نصوصه في مختارات وطنية وأجنبية. يكتب أحياناً مقالات عن الأدب الأرجنتيني.

على نهج *كافكا*، يعتقد *سورينتينو* أن البيروقراطية هي الأكثر تمثيلا للواقع الحديث. المحاكاة الساخرة تجد أرضاً خصبة في سلسلة الشخصيات التي يبتكرها الكاتب. الوحدة عنصر يظهر في عدد من قصص *سورينتينو* ويتناغم مع ارتباك الواقع بلمسة من عدم الرضا والعزلة. قصص *سورينتينو* تثبت نجاحه في مجال السرد الخيالي، وفي طريقة تقديم مشاهد من الحياة الواقعية بلا حلول. يقول عن نفسه إنه يكتب ما يرغب أن يقرأه، دون أن يضع القراء في الحسبان؛ ولهذا لا يعرض مسودات نصوصه على أحد، فرأي الآخرين يربكه.

سورينتينو لا يبحث في الأدب عن أي شيء بخلاف مجرد سعادته كقارئ، ولذلك فقد تخلّى على الفور عن قراءة الكتب المملّة أو غير السارة، من دون الاهتمام بأمجاد وأسماء مؤلفيها. ويجد نفسه منجذبا إلى السرد الذي يحفل ويحتفي بالمغامرات البشرية وليس السرد المنطقي الذي لا يؤدي إلا إلى الملل وصرف الإنتباه عن القراءة. في مراهقته، كان يشعر بالانجذاب نحو أعمال *تشارلز ديكنز*، ثم بعد ذلك أصبح متيماً بأعمال *سيرفانتس*، *كافكا*، بورخيس، *دينفي*.

يشعر القارئ لنصوص *سورينتينو* أنه يكتب لإرضاء نفسه في المقام الأول، أي كتابة النصوص التي يرغب في قراءتها. وتتميز

كتاباته باهتمامها بطرائق السرد غير العادية أو الخيالية بشكل غير محدود أكثر من الواقعية. *سورينتينو* لا يتبع نظاما أو طريقة معينة في الكتابة، ولكنه يترك نفسه ببساطة تتجرف مع الظروف، خاصة حين تمنحه الكلمات السعادة لكتابتها. لكنه ببساطة كذلك يتخلى عنها إن تمردت عليه، أو تحولت إلى عمل يخلو من المتعة!

جرى اقتباس العديد من قصص *سورينتينو* في أفلام قصيرة، مثل قصة «أسلوب حياة» و«الطريقة الوحيدة لمكافحة العقارب». إحدى هذه القصص، وهي «هناك رجل معتاد على ضربي بمظلة على رأسي» حظيت بشهرة واسعة، كتبها سورينتينو في مطلع شبابه ولم يعرها اهتماما كبيرا، ولم ينوها كقصة رمزية. لكن - كما يقول - القراء يأوّلونها بطرق عديدة، وهو حق مشروع لهم، وقد قيل في شأنها أنّ «الراوي يكتب قصة، والقارئ يقرأ شيئاً آخر!»

نبذة عن المترجم

عبدالله محمد الطيب، كاتب وقاص وروائي ومترجم سعودي. حاصل على بكالوريوس الهندسة الكيميائية، وماجستير ودكتوراه إدارة أعمال. عمل كإداري في شركة الزيت العربية السعودية، أرامكو. نشر عدداً من القصص القصيرة والقصائد في صحف ومجلات محلية، ومواقع إلكترونية محلية وعالمية. ترجم الكثير من القصص والقصائد لكتاب وكاتبات عرب إلى الإنجليزية؛ كما ترجم أعمال أدباء عالميين من الإنجليزية إلى العربية. نشر عدداً من القراءات النقدية الأدبية، وبحوثاً محكمة باللغة الإنجليزية في مجال الإدارة.

الإصدارات:

1. «On the Weave of the Sun»، انطولوجيا القصة العربية المعاصرة المترجمة باللغة الإنجليزية، عام 2012؛ قصص قصيرة لمجموعة من الكتاب العرب من الشرق الأوسط.
2. «كانت سلاماً.. فقط»، رواية عربية؛ عام 2017.
3. «Ascension on the Wings of a Tale»، انطولوجيا القصة العربية المعاصرة المترجمة باللغة الإنجليزية، عام 2019. قصص قصيرة مترجمة لكتّاب من السعودية والشرق الأوسط.
4. «Killing Me Once More»، رواية مترجمة إلى اللغة الإنجليزية، عام 2020. الرواية للكاتبة الإماراتية أسماء الزرعوني.

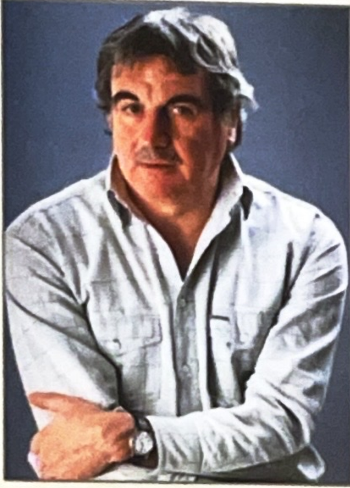
5. «الرجل الذي يحب العناق»، مجموعة قصصية مترجمة من اللغة الإنجليزية لكتّاب معاصرين، عام 2021.

حساب تويتر : AAltaiyeb@

موقعه على الانترنت: http://sbpra.com/abdallahaltaiyeb/

المحتويات

FERNANDO SORRENTINO



حين أشرع في كتابة قصة، أكون راغبًا فقط في كتابة قصة.
عندما أكتب قصة، أبذل ما بوسعي لجعلها أفضل عمل أدبي ممكن، لأنني فقط أريد أن أكتب قصة.
حين أكتب قصة، لا أتعمّد الترميز أبدًا، ولا أسعى لإبداع قصة مجازيّة، ولا أحاول بناء أيّ استعارة تمثيليّة؛ فأنا فقط أريد أن أكتب قصة.
عندما أكتب قصة، لا أتطلّع إلى نشر رسائل أخلاقية أو روحيّة أو اجتماعيّة أو سياسيّة أو شيءٍ من هذا القبيل على الإطلاق؛ أنا فقط أريد أن أكتب قصة.
حين أكتب قصة، لا أهدف إلى تثقيف القارئ أو هزّه أو حمله على التأثر أخلاقيًّا، أو تغييره إلى شخصٍ جديد أفضل وأكثر جدارة بمجتمعنا، وما إلى ذلك؛ أنا ببساطة أريد أن أكتب قصة.
باختصار، عندما أكتب قصة، فهدفي فقط هو كتابة قصة.

فرناندو سورينتينو

"فيرناندو سورينتينو هو أحد أعظم الأسماء في سماء الإبداع السردي الرائع"

بابلو دي سانتيس



kalemat
www.kalemat.com

